سلسلة دراسات الفكر المهدوي ١

جيوبوليتيك الدولة الإسلامية المهدوية

محمد علي خليفة

مركز براثا للدراسات والبحوث
Baratha Center for Studies and Research

جيّوبوليتيك الدولة الإسلاميَّة المهدويَّة

محمد علي خليفة

◆ رقم الطبعة: الأولى
◆ تاريخ الطبعة: ٢٠٢٤ م - ١٤٤٥هـ
◆ مكان الطبعة: بيروت - بغداد

الآراء المطروحة لا تعبر عن رأي المركز بالضرورة

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research
www.barathacenter.com
barathacenter@gmail.com

سلسلة دراسات الفكر المهدوي ١

جيوبوليتيك الدولة الإسلامية المهدوية

محمد علي خليفة

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

سِلسِلةُ دِراساتِ الفِكرِ المَهدَويّ

تُمثِّـل فكـرةُ المُخلِّص قضيّـةً محوريّـةً في الفكر الإنسـانيِّ عامّـةً، وفي الفكرِ الإسـلاميِّ على وجه الخصـوص، وتأتي تحت عنوان القضيّـة المهدويّة. والجدير بالذِّكر أنَّ المَهدويّةَ في الفكر الإسـلاميِّ ليسَـت مُجرَّدَ نظريّة تَرتبط بالفقه السِّياسيِّ وطَبيعة الحُكم في الإسلام، بل لها أبعادٌ عقائديّةٌ وحضاريّةٌ تَتعلَّق بنظريةِ الاستخلاف الإلهـيِّ في الأرض: ﴿**وَنُرِيـدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْـتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾، وبالتَّكاليف المُوجَّهة للإنسـان في سَعيه المُفترَض نحو الكـمال، وهي تكاليفُ تتعلَّـقُ أولاً بتأمين الأرضيّـة الصّالحة لظُهـور المُخلِّص، وبالمُواصفاتِ التي يَنبغي توافُرُها في الأنصار من أجلِ الظُّهور المُبارَك، وهي ترتبط ثانيًا باسـتنفادِ الأطاريـحِ الخادعة والمُضلِّلة التي تدَّعي أنَّها تُقـدِّمُ الحلولَ النِّهائيّةَ للبَـشر ولتَحقيـقِ العَدالة، ثم هـي ثالثًا تَرتبطُ بمَوضـوعِ القيادة المُرتبطـة بالإمامة المَعصومة كمَرجعيّة أصيلة في قيادة الحكومة البشريّة نحو خلاصِها وسعادتها.

من هنا، تأتي هذه السِّلسـلةُ لتُحاولَ تَبيـينَ إرهاصاتِ هذه الحكومة، وهَيكليّتها، وتَعريفهـا لذاتها وواقعها، وطريقة تَعاطيها مـع التَّناقُضات الأزليّة في عالم التَّزاحُم والصِّراعات، كما تُقدِّمُ النَّظريّةَ الإسـلاميّةَ لفكرة المَهدويّة في أبعادها الاستراتيجية والسِّياسيّة والاجتماعيّة وحتَّى الفَرديّة، بلُغة مُعاصرة، وبمَنهجيّة علميّة، تَفتحُ الآفاقَ العَملية أمامَ التَّوّاقينَ إلى خلاص البَشريّة، وتُقدِّمُ تصوُّرًا عَمليًّا عن «البديل»؛ لتُثبتَ أنَّه مُمكنٌ، وواقعيٌّ، وقريب؛ ولِيَعرفَ المُمَهِّدونَ تكليفَهم في طريق التَّمهيد للظُّهور المُبارَك، ومَوقعَهُم من النَّظريّات العلميّة والأحداث السِّياسـيّة، ويَسـيرَ المَهدويُّونَ على بَصيرة؛ ﴿ **لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ** ﴾.

المقدمة

تمُثِّـلُ المَهدويّـةُ وأحداثُ آخرِ الزَّمـان فرعًا من فروع «علـم الأُخرويّات» Eschatology، وفي بعـضِ الحضارات والمنظومات الفكريّة الدِّينيّة يكونُ لأحداث آخرِ الزَّمان تأثيراتٌ هائلة في الواقع السِّياسي.

وفي هـذا الكتابِ نُحاولُ إلقاءَ الضَّوءِ على مجموعةٍ من المسـائل الفكريّةِ ذاتِ البُعـد الدِّينـيّ، التي تتَّسـمُ بتأثيرهـا وامتداداتِها السِّياسـية في حركة الواقع المعاصر، ولا سيَّما ما يتعلَّق بالعَقيدة المَهدويّة. ونتناولُ هذا النَّسقَ الفكـريَّ بالتَّحليل وإعادة البنـاء، لتَقديمه للقُـرّاء والباحثينَ بمصطلحات معـاصرة، بغرضِ توضيحِ المعـارف والقِيَم الإسـلاميّة المتَّصلة بالمَشروع العالميِّ للعَقيدة المَهدويّة، وبيانِ أهمِّيتِها كأساسٍ لنظريّة الحُكم الإسلاميِّ في المَذهب الإماميّ.

وبما أنَّ مشروعَ الدَّولة المَهدويّة يتَّصف بسـمة العالميّة، ويَرتبطُ من حيثُ المضمـون بالمُحـدّدات الجغرافيّة، يُصبحُ من الـضَّروريِّ تناوُلُ المَشروعِ وفقَ مفهـومِ الجيوبوليتيك (علم سياسـة الأرض)؛ بهدف دراسـة العلاقة بينَ السِّياسـة والجغرافية في هـذا المَشروع، والوقوف على تأثيرِ السُّـلوكِ

السِّـياسيِّ في تَغيير الأبعادِ الجغرافيّةِ للدَّولة، واتِّصالاتِها الحيويّةِ بمُحيطِها العالميِّ في منظومة سلاسلِ التَّوريدِ والاتِّصالاتِ والنَّقل والهِجرة وغيرِها.
وانطلاقاً من محورية الإنسـان في الصِّراع بينَ الحقِّ والباطل، سنُحاول في هذا البَحـث التَّعريفَ بمجموعةٍ من المفاهيم، التـي تتمحورُ حولَ عمليّةِ البنـاء المَعنويِّ للإنسـان في مشروع الدَّولـة المَهدويّة؛ الذي يُعَـدُّ الرَّكيزةَ الأساسـيّةَ لهـذا المَشروع، حيـث برزَتْ أهميّةُ دراسـة أسـاليبِ تربيةِ هذا الإنسـان على القِيَم الإيمانيّة، والتوجُّه إلى المثَلِ الأعلى المُطلَق، وهو الله تعالى، وُصولاً لبناء الحُكمِ المَهدويِّ العالميِّ.
وممَّا لا شـكَّ فيه أنَّه لا يُمكِنُ السَّـيرُ الصَّحيحُ في هذا الطَّريق من دون بناءِ الإنسـانِ العالميِّ الكاملِ، الذي يُفضي إلى بناء مُجتمعٍ عالميٍّ مِثاليٍّ، ذي هويّةٍ إنسانيّةٍ جديدة، يُمكِنُ من خلاله توحيدُ الأرضِ تحت حكومةٍ عالميّةٍ واحـدة، بعد أنْ تكون قـد تَحقَّقَت كلُّ المُوجبات والأسـباب الموضوعيّة للنَّجـاحِ والانتصارِ الكاملِ، بدءًا مِن الإنسـان والمجتمع والهويّة، وصولاً إلى الأسـباب الجيوبوليتيكيـة ببُعديهـا الأخلاقـيِّ والماديّ (السـياسي، العسكري، الاقتصادي).
كذلك سنَسـتعرضُ كلَّ الـشُّروطِ المَوضوعيّة لإقامة دولـة العَدل الإلهيِّ، وتَحليـل عواملِ القوّة، مثل قوّةِ الإرادة وقـوّةِ الحقِّ، وكلِّ ما يَضمنُ فاعليّةَ التَّحقُّق.

الفصل الأوّل: الجيّوبوليتيك

● أوّلاً: تعريف الجيّوبوليتيك:

الجيّوبوليتيك هو علم دراسة تأثير الأرض-برّها وبحرها ومرتفعاتها وجوفها وثرواتها وموقعها -على السياسة في مقابل مسعى السياسة للاستفادة مِن هذه المميّزات وفق منظور مستقبليّ[1]. في معناه البسيط يعني الجيّوبوليتيك: «علم سياسة الأرض»؛ أي دراسة تأثير السلوك السياسيّ في تغيير الأبعاد الجغرافيّة للدولة[2]. ويتداخل هذا المفهوم مع مضمون علم الجغرافيا السياسيّة الذي يُعْنى بدراسة تأثير الجغرافيا - الخصائص الطبيعيّة والبشريّة - في السياسة. ولدى البعض، فإنّ الجغرافيا السياسيّة تدرس الإمكانات الجغرافيّة المتاحة للدولة، بينما الجيّوبوليتيك تُعنى بالبحث عن الاحتياجات التي تتطلّبها هذه الدولة لتنمو حتّى لو كانت وراء الحدود. وبينما تشغل الجغرافيا السياسيّة نفسها بالواقع؛ تُكرِّس الجيّوبوليتيك أهدافها للمستقبل.

يقوم التحليل الجيّوبوليتيكيّ على موضوعين أساسيِّين:

• **الأوّل:** وصف الوضع الجغرافيّ وحقائقه كما تبدو بالارتباط بالقوى السياسيّة المختلفة.

---

1 - Evans، Graham The Penguin Dictionary of international relations. Newnham، Jeffrey. London: Penguin books.(1998).

2 (.Devetak، Richard، George، Jim، Sarah. An introduction to International relations 1946-Percy. V.1977-(Third ed.). P: 816.).

• **الثاني:** وضع ورسم الإطار المكاني الذي يحتوي على القوى السياسيّة - الدول - المتفاعلة والمتصارعة.

● ثانياً: نظريّات الجيّوبوليتيك:

يوجد العديد مِن النظريّات الجيوبوليتيكيّة نذكر منها:

1 - نظريّة قلب العالم Heart land Theory

2 - نظريّة النطاق الهامشيّ Rim land Theory

3 - أمّـا النظريّة الثالثة، فهي مِن مؤلَّف هـذا الكتاب، والتي قد لا تتمتّع بالمعايـير العلميّـة المطلوبة ولا ندّعي كمالها، لكنّهـا محاولة أولى تقدِّم إضافـة تخـدم موضوعنا الـكُلّيّ، وهي تمهيـد لنظريّة المحـور المركزيّ Central Pivot Theory.

1. نظريّة قلب العالم (Heart land)[1] يعدّ «هارولد ماكندر» صاحب أشـهر نظريّة اسـتراتيجيّة عالميّة في وقتنا المعاصر، والتـي قدّمها ضمن

1 - (Mackinder، H.J.The Geographical Pivot of History. The Geographical Journal، Vol.23، No.4. p:421- 437. Mackinder، H.j.Democratic Ideals and Reality، A study in the politics of Reconstruction. National Defense. p:175- 193. Charles Kruszewski. The Pivot of History. Foreign Affairs)

مقالته بعنوان: «المحور الجغرافيّ للتاريخ» وشرح فيها الأفكار الأساسيّة لمنطقة قلب العالم، واعتبر فيها أنَّ سطح الأرض مكوّن من كتلة يابسة ضخمة تضمّ كلاًّ من أوروبا وآسيا وأفريقيا وبعض الجزر المعزولة؛ أي تضمّ الأمريكيّتين وأستراليا واليابان وبريطانيا، وأطلق على أوروبا وأفريقيا وآسيا اسم «جزيرة العالم».

أمّا المنطقة التي أطلق عليها قلب العالم، وهي المنطقة المحوريّة Pivot Area»»، فهي المنطقة الممتدّة من نهر الفولغا غربًا إلى سيبيريا شرقًا، ومن جبال الهملايا في الجنوب إلى منطقة القطب الشماليّ في الشمال. وتتلخّص نظريّة قلب العالم لماكندر في الجمل الآتية:

- مَنْ يحكم شرق أوروبا يسيطر على منطقة قلب العالم.
- ومَنْ يحكم قلب العالم يسيطر على جزيرة العالم.
- ومَنْ يحكم جزيرة العالم يسيطر على العالم بأسره.

2. **نظريّة النطاق الهامشيّ « Rim land»**[1] صاحب هذه النظريّة هو «نيكولاس سبايكمان»، وقد ردّ فيها على نظريّة ماكندر، إذْ اعتبر أنَّ منطقة قلب العالم أقلّ أهمّيّة من المنطقة الهامشيّة، ومن ثَمَّ مَنْ يرِد السيطرة

1 - (NICHOLAS J. SPYKMAN. Geography and Foreign Policy. 1، p: 28- 50. NICHOLAS J. SPYKMAN. The Geography of Peace. NICHOLAS J. SPYKMAN. America's Strategy in World Politics):

والقوّة العالميَّة، فإنَّ عليه أنْ يضع في الحسبان ما يأتي:

- مَنْ يسيطر على الأراضي الهامشية يتحكّم في أوراسيا.
- ومَنْ يحكم أوراسيا يتحكّم في مصائر العالم.

وقد رأى أنَّ الصراع بين القوى العظمى سوف يكون مِن خلال السيطرة على الأراضي الهامشيّة، ومع ظهور الاتحاد السوفييتيّ حينئذٍ بصفة المسيطر الأوحد على قلب العالم، أصبحت آراء سبايكمان أساس السياسة الأميركيّة في احتواء المدّ الشيوعيّ في شرق أوروبا. وقد نجحت في إنشاء حلف شمال الأطلسيّ لمدّ نفوذها على الجانب الغربيّ للمناطق الهامشيّة، ونجحت في كسر تحالف دول شرق أوروبا مع الاتحاد السوفييتي، وأدّت دورًا في تقليص الدور الروسيّ في شرق آسيا بزيادة نفوذها العسكري في الفيليبِّين وكوريا، وإنشاء تحالفات استراتيجيّة مع دول آسيا.

ملاحظة:

إنَّ خاصيّة الدول المنتمية إلى أحد التصنيفين (يوجد نقص)، فالدول المصنَّفة في قلب العالم تتمتّع بقوّة عسكريّة بريّة كبيرة جدًا وتفتقد للقوّة البحريّة. عدم الإطلال على المُسطَّحات المائية عمومًا يقدّم اقتصادًا ضعيفًا؛ نظرًا للارتباط بين الملاحة البحريّة والتجارة العالميَّة وقوّة الاقتصاد، ممَّا يجعل مِن هذه الدول حبيسة جغرافيًّا، وهذا يؤدّي إلى

ضعف في الانتشار التجاريّ والثقافيّ لمحدوديّة التنقل والتواصل، باستثناء دول الجوار البريّ، ممَّا يؤدّي إلى العزلة الثقافيّة والاقتصاديّة والعسكريّة، وضعف في التأثير الجيّوبوليتيكيّ. أمّا الدول المصنّفة في القلب والحافّة، فتتميّز بإطلالات على المُسطَّحات المائيّة، ما ينتج عنه قوّة اقتصاديّة أكبر وانفتاح ثقافيّ واقتصاديّ على الدول التي لا تحدّها حدود برّيّة معها نتيجة الانفتاح على المُسطَّحات المائيّة، ما يؤدّي إلى تأثير ثقافي واقتصاديّ وسياسيّ وجيوبوليتيكيّ؛ لما تملكه مِن تنوّع في القوّة العسكريّة البريّة التي تمثّل الحضارة التقليديّة والقوّة البحريّة التي تمثّل الحضارة الحديثة. إذًا، تَوَفُّرُ القوّة البرّية لا يقتصر على الطابع العسكريّ فقط، بل على الهُويَّة الجيّوبوليتيكيّة للحضارة التقليديّة لدولة ما (روسيا مثلاً)، والقوّة البحريّة التي تمثّل الهُويَّة الجيّوبوليتيكيّة للحضارة الحديثة (بريطانيا، وأمريكا مثلاً).

الفصل الثاني:
تمهيد أوّلي لصياغة نظريّة المحور المركزيّ
(Central Pivot Theory)

● أوّلاً: الحركة الجغرافيّة لأهمّ الأنبياء والرسلات العالميَّة.

الأنبياء أولو العزم - محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام - هم أصحاب الحركة الأساسيّة التي شكّلت الدور الأهمّ في مسار التكامل الإنسانيّ. اللافت في حركتهم الاشتراك الجغرافيّ في بقعة واحدة الشرق الأوسط (شبه الجزيرة العربيّة، العراق، فلسطين ومصر) بالإضافة إلى الكثير من الأنبياء الأساسيّين في هذا المسار (يعقوب، ويوسف، وزكريّا، ويحيى إلخ.. عليهم السلام).

وإذا نظرنا إلى الأديان العالميَّة الثلاثة: المسيحيّة، الإسلام واليهود، نرى أنّها انطلقت من هذه البقعة الجغرافيّة. إذًا، كان الاختيار الإلهيّ لأهمّ الحركات الرساليّة لأنبيائه – أولي العزم وغيرهم من الأنبياء - تتمحور في مركز ومحور العالم الذي اختاره الله النقطة الأساسيّة والمركزيّة لانطلاقة أهمّ رسائله، مع وجود أنبياء آخرين في كامل أنحاء الكرة الأرضيّة. إلّا أنَّ عدم مركزيّة الأنبياء الآخرين ومحوريّة رسالاتهم جغرافيًّا، أدّى إلى انحصار رسالتهم بالمجتمع الضيّق؛ لتكون رسالاتهم حبيسة الجغرافيا. إذًا، كما كان نجاح الرسالة وتوسّعها وعالميّتها مرتبطةً بشخص النبيّ، فجغرافيّته من العوامل التي تسهم في التأثير العالميّ للدين أيضًا. فالاختيار الإلهيّ لأنبياء أولي العزم أصحاب

الأهداف العالميَّة، يشمل شخص النبيّ وطبيعة الرسالة والشريعة والجغرافيّة التي سينطلق منها أيضًا. مِن هنا نستنتج أهميّة الجغرافيا لأيّ مشروع إلهيّ؛ لما لها مِن أثر كبير على التفوّق والقدرة على التوسّع والانتشار. فالتاريخ يقول إنَّ الأديان العالميَّة الأكثر انتشارًا، انطلقت مِن هذه البقعة محور العالم.

● **ثانياً: الأمّة الإسلاميَّة:**

ما هي الأمّة؟ يُعدُّ بندكنت أندرسون أنّ الأمّة هي جماعة سياسيّة مُتخيّلة، إذْ يشمل التخيّل أنَّها محدَّدة وسيّدة أصلا[1]. أمّا واتسن، فيعدُّ الأمّة توجد حين يُعدُّ عدد كبير من البشر في جماعةٍ ما أنَّهم يشكّلون أُمّة، أو يسلكون كما لو أنَّهم قد شكّلوها[2]، وكان رينان قد أشار إلى هذا المفهوم المنمّق بقوله: «والحال، إنَّ جوهر الأمّة يتمثّل في وجود كثير مِن الأشياء المشتركة بين سائر أفرادها، وفي أنَّ سائر هؤلاء قد نَسوا أشياء عديدة»[3]. أمّا غلنر، الذي يعدُّ الأمّة نتاجًا للقوميّة، فيقول بحدَّة إنَّ «القوميّة ليست يقظة الأمم على وعي ذاتها: إنّها تخترع الأمم حيث لا وجود لها»[4]. ثمّ يُعبرّ بندكت عن أهميّة

---

١ - بندكت أندرسن، الجماعات المتخيّلة تأملات في أصل القوميَّة وانتشارها، ص: ٦٣.

2 - Seton-Watson,p: 5.

3 - Ernest Renan. Qu'est-ce qu'une nation? P: 892.

4 - Ernest Gellner. Thought and change. P: 169.

الأمّة بالنسبة للإنسان «إنَّ الانتماء إلى أمّة هو تلك القيمة التي تحظى بأكبر قدرٍ من الشرعيّة الشاملة في حياة عصرنا السياسيّة»[1]. ويرى وائل حلّاق أنَّ الأمّة تتكوّن في تعريفها النموذجيّ «من مجموعة المؤمنين المتساوين في القيمة، كمؤمنين، فلا يتمايزون أمام الله، وإذا فضّل الله بعضهم على بعض، فإنّ ذلك لا يكون على أساس الانتماء إلى طبقةٍ أكثر قدرة أو إلى لون بشرةٍ معيّن، بل على أساس درجة إيمانه أو إيمانها»[2].

ما هي مشتركات الأمّة الإسلاميَّة؟

المشتركات العامّة بين عامّة المسلمين باختلاف مذاهبهم (بعض ملامح الثقافة الإسلاميَّة الأصيلة):

- القرآن الكريم.
- الصلاة.
- الحج.
- الصيام.

---

١ - بندكت أندرسن، الجماعات المتخيّلة تأمّلات في أصل القوميّة وانتشارها، ص:٥٩.

٢ - وائل حلاق، الدولة المستحيلة الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي، ص ١٠٦-١٠٧-١٠٨.

- الزكاة.
- زيارة المراقد المقدّسة.
- الأدعية الدينيّة.
- القرآن الكريم.

يُعدُّ القرآن، بوصفه معجزة النبيّ محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) مِن أهمّ المقدَّسات المشتركة التي توجد في منزل كلّ مسلم، وهو الملجأ والمرشد الروحي الأوّل للمسلمين في حياتهم. وكونه عربيًّا يجعل القرآن اللغة العربيّة المشترك الأهمّ بين المسلمين؛ لما للغة مِن أهمّيّة كبيرة في تكوين الأمم وظهور القوميّات «لكلّ شعب بما هو شعب تكوينه القوميّ مثلما أنّ له لغته»[1]، كما أنّها مِن الشروط الأساسيّة لتوحيد الأمّة. «الأهمّ بكثير في شأن اللغة، هو قدرتها على توليد جماعات متخيَّلة وعلى بناء ضروب معيّنة مِن التضامن»[2]. تتمتّع اللغة العربيّة بانتشار واسع بين كلّ الدول الإسلاميَّة، فالقرآن هو المدوَّنة الموحِّدة غير المحرَّفة، ويُعدُّ مِن أهمّ أسباب قوّة اللغة العربيّة وانتشارها؛ للضرورة التي تفرضها الشريعة الإسلاميَّة لقراءة القرآن باللغة العربيّة في الصلاة. إذًا، فاللغة العربيّة

---

1 - Aira Kemilainen, Nationalism: Problems Concerning the World, the Concept and Classification. P42.

٢ - بندكت أندرسن، الجماعات المتخيّلة تأمّلات في أصل القوميّة وانتشارها، ص٢١٣.

الإسلاميَّة القرآنيّة ليست لغة قوميّة مختصّة بالعرب حصرًا؛ لأنّ كلّ مَنْ يدخل الإسلام حتّى لو لم يكن عربيًّا، سيتعلّم اللغة حتمًا كشرط لقراءة القرآن وأداء الصلاة، والإسلام يرفض القوميّة «لا فرق بين عربي ولا أعجميّ ولا أبيض ولا أسود إلّا بالتقوى».

■ **الصلاة:**

تُعدّ الصلاة المشترك الأساسي كالقرآن، حيث يتشارك المسلمون في أدائها كلّ يوم، ممّا يعزّز التقارب والألفة بينهم ويوحّد سلوكهم الجمعيّ في الأمّة. كما أنّها تعتبر السبب الثاني لقوّة اللغة العربيّة لضرورة أداء الصلاة بالعربيّة، وتوجّه جميع المسلمين المنتشرين في أرجاء العالم كلّه باتّجاه قبلة واحدة (الكعبة)؛ لما لهذا العمل مِن رمزيّة باعتبار الكعبة محور الأرض، وأنّه أينما كان الإنسان على وجه الأرض، عند أدائه الصلاة عليه التوجّه إلى قبلة واحدة محوريّة ومركزيّة. فالصلاة بأوضاعها الجسديّة المتتابعة تعبرّ عن خضوع لسلطةٍ أعلى، في حين تمثّل بتلاوتها ودعاءاتها واستعاذتها الحاجة إلى رضا هذه السلطة وغبطتها بأعمال المؤمن[1]. وللصلاة أهمّيّة في تعزيز المشتركات بين الشعوب المتباعدة جغرافيًا وثقافيًا وحضاريًّا أيضًا، وهذا ما يخلق أمّة متماسكة موحّدة

١ - وائل حلاق، الدولة المستحيلة الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي، ص ٢١٩.

ليصبح المشترك بينهم أكبر مِن كلّ الاختلافات والتناقضات. وبتعزيز المشترك بينهم مِن خلال الثقافة الإسلاميَّة، يعزّز مفهوم الأمّة والانتماء للهُويَّة الفطريّة.

■ **الحج:**

المميّز في الحجّ عن المشتركين الأوّلين أنّه طقس دينيّ جماعيّ، فأداء الصلاة وقراءة القرآن يمكن أنْ تكون فرديّة أو جماعيّة، أمّا الحج فلا يكون إلّا جماعيًّا، وهذا بحدّ ذاته له أهميّة كبيرة لتعزيز المشتركات وتثبيت الانتماء إلى الهُويَّة، ليثبت الحجّ أنّ الإسلام فوق الأعراق والقوميّات المحدودة والهويّات الضيقة المصطنعة.

إنّ التجاور البدنيّ الغريب الذي يتجاوره الملاويّون والفرس والهنود والبربر والأتراك في مكّة، لا يمكن أنْ يُفهم مِن دون فكرة أنّهم جماعة على نحوٍ ما؛ ذلك أنَّ البربريّ الذي يلتقي الملاّوي عند الكعبة لا بدّ مِن أنْ يتساءل: «لماذا يفعل هذا الرجل ما أفعله، وينطق بالكلمات التي أنطق بها مع أنّنا لا نستطيع أنْ يكّلم واحدنا الآخر؟» وليس هناك سوى جواب واحد سبق أنْ تعلّمه المرء، هو: «لأنّنا...مسلمان»[1].

---

١ - بندكت أندرسن، الجماعات المتخيّلة تأملات في أصل القوميّة وانتشارها، ص:١٢٣.

■ **الصيام:**

وهو مِن المشتركات المهمّة بين المسلمين كافّة، فالصيام الواجب في شهر رمضان يُحتّم على المؤمنين الصيام؛ لما لهذا العمل مِن أثر على التوحّد مع معاناة الآخرين، مولّدًا الشعور بالرحمة تجاه البشر الآخرين والتواضع إزاءهم[1]، ما يعزّز مِن الترابط الاجتماعيّ للأمّة.

■ **الزكاة:**

تولّد الزكاة الشعور بالمحتاجين والفقراء، وتذكّر المؤمنين بأنَّ ملكيّتهم للثروة الدنيويّة هي ملكيّة اسميّة، حيث يمكّن المالك الحقيقيّ للثروة مِن استردادها بحسب تقديره[2].

■ **زيارة المراقد المقدّسة[3]:**

تعتبر زيارة المراقد المقدّسة أيضًا مِن الشعائر الجماعيّة التي تعزّز المشترك بين الأمّة، ما يقوّي الانتماء للهويّة، فنرى مثلاً في زيارة

---

١ - وائل حلاق، الدولة المستحيلة الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي، ص ٢١٩.
٢ - وائل حلاق، الدولة المستحيلة الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي، ص ٢١٩.
٣ - هذا المشترك للأسف طُليت عليه صبغة طائفيّة مذهبيّة مختصّة بالمذهب الاثني عشري، إلّا أنّنا نرى في الكثير من الأحيان مَنْ يكسر هذا الوهم المتخيّل من الذين قد ضلّلوا الناس بأخبار غير صحيحة عن هذا الطقس الدينيّ أو مِن خلال بعض الجهلة المنتمين لهذا المذهب بأفعالهم المُسيئة والمبالغ فيها غير المنطقيّة. فالإمام هو إمام العالم لا الشيعة ولا المسلمين حصرًا دون غيرهم.

«الأربعين» تجمّع عشرات الملايين مِن المسلمين على مختلف مذاهبهم، وحتّى أحيانًا دياناتهم غير الإسلاميّة، ليمشوا مِن النجف الأشرف بعد زيارة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إلى كربلاء المقدّسة لزيارة الحسين عليه السلام، لتكشف هذه المناسبة عن حقيقة نموذج الإنسان الكامل وماهيته العابرة للجغرافيا والمذاهب والأعراق والقوميّات، فالهويّة التي نراها جليّة في أربعينيّة الإمام الحسين عليه السلام، تلك الهوية الفطريّة التي تتميّز بالقوّة والشموليّة والجاذبيّة الكبيرة، استطاعت الإحاطة بالنوع الإنسانيّ ككلّ دون أيّ تمييز أو تقسيم أو اختزال، تلك الهويّة الجاذبة للفطرة الإنسانيّة استطاعت أنْ تجذب إليها أكثر مِن عشرين مليون زائر كدحوا لزيارة الحسين عليه السلام، استطاعت هذه الهويّة الحسينيّة أنْ تحشد لأكبر محفل بشريّ عرفه التاريخ في أكثر البلدان «تخلّفًا وأكثرها بعدًا عن الحضارة» بالنسبة للكثير مِن شعوب «الحضارة المادّيّة» التي لا تؤمن إلّا بالعنصر المادّيّ للوصول إلى الأهداف المرجوّة دون الحاجة إلى السماء، وإليكم هذه المقارنة البسيطة: تحشد أربعينيّة الإمام الحسين عليه السلام الملايين مِن الزوّار سنويًّا ومِن دون جهة تتبنّى الترويج لهذا النوع مِن السياحة الدينيّة ومِن دون توفّر الحدّ الأدنى مِن الأسباب المادّيّة - بنى تحتيّة، أمن، استقرار، كهرباء..- لنجاح هذا الحدث. وفي المقابل، دول «الحضارة المادّيّة» هيّأت كلّ الأسباب المادّيّة اللازمة لنجاح مشروع مماثل للأربعينيّة الحسينيّة، ألا وهو مسار «المشي على

خطا إبراهيم»، حيث سعت هذه الدول -بصدارة أمريكا وفرنسا وبريطانيا- إلى إقامة حدث عالميّ يروّج «للديانة الإبراهيميّة المشتركة»: «يدرس فريق العلم والسياسات الخارجيّة والدين التابع لوزارة الخارجيّة الأمريكيّة طرائق العمل مع أحفاد إبراهيم الروحيين لتطوير شبكة مِن طرق الحجّ تربط المواقع المقدّسة في البلدان العشرة في الشرق الأوسط التي زارها إبراهيم»[1]. وإليكم النتيجة التي آلت إليها كلّ هذه الجهود التي تصدّت لها الدول العظمى: «فُتح الطريق عام 2008 كمحفّز للسياحة الدينيّة المستدامة والتنمية الاقتصاديّة، ومنصّة شبابيّة، وبناة السلام. وبدأت بمسيرة شملت مجموعة الطلبة بصحبة الرئيس السوريّ الأسد وهو يمشي على امتداد الطريق مع الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر. وبدأ عدد السياح أو الحجّاج على الطريق عام 2008 نحو 250 شخصًا زاد عددهم عام 2009 ليصل إلى 650 شخصًا، وهو ما يعكس انتشار الفكرة والترويج لها»[2].

إنَّ الأسباب الموضوعيّة للنجاح تتجاوز بكثير الأسباب المادّيّة غير المرتبطة بالسماء.

---

1 - هبة جمال الدين محمّد العزب، الدبلوماسيّة الروحيّة والمشترك الإبراهيمي المخطّط الاستعماري للقرن الجديد، ص83.

2 - هبة جمال الدين محمّد العزب، الدبلوماسيّة الروحيّة والمشترك الإبراهيمي المخطّط الاستعماري للقرن الجديد، ص129.

■ **الأدعية الدينيّة:**

الدعاء هــو الإرث الذي ورثته الأمّة مِن الإنســان الكامل، والذي يعتبر الخريطــة لصناعــة المحتــوى الإنســانيّ في مختلف المجالات النفســيّة والاجتماعيّة والروحيّة؛ ليكون الدعاء كالدســتور الذي ســيختاره الإنسان وينجــذب إليــه في مســاره التكامليّ، فيكون المشــترك هو هذا الدســتور الصانع للمحتوى الذي ســينتج عنه سلوك إنسان هذه الأمّة، وبذلك يكون المشــترك الإنســانيّ في هذه الأمّة أكبر، باعتبارهم ســلكوا المسار نفسه، وآمنوا بالمنظومة الأخلاقيّة نفسها.

ج- الامتداد والتنوع الجغرافي للدول الإسلاميّة.

يتميّــز العالم الإســلاميّ بامتداد جغــرافيّ كبير ومتنوّع، حيــث إنَّه يمتدّ مِن شرق آســيا (أندونيســيا وماليزيــا) إلى أوروبــا الشرقيّــة ودول البلقان (صربيا ألبانيا) وشــمال أفريقيا وعمقها (نيجيريا) وجنوبها جزر المالديف والموزامبيــق. حيث إنَّ هناك 57 دولة إســلاميّة موزّعــة على ثلاث قارات العــالم القديــم مع وجود الكثير مِــن الجاليات الإســلاميّة في أغلب دول العالم. كما أنّه توجد دول غير إســلاميّة في شرق آســيا، ولكنْ مع حضور إســلاميّ كبير؛ كالهند 173 مليون نســمة مِن المسلمين، ومقاطعة سنجان الصينيّة في غرب الصين، وتعدّ مِن أكبر المقاطعات كمساحة 1665 مليون كيلو متر مكعّب، والتي تحوي ما يقارب 23 مليون نســمة مِن المســلمين

الإيغور، وتتميّز هذه المنطقة بأغلبيّة سكّانها من الإيغور. إذًا، فالامتداد الجغرافيّ الإسلاميّ يبدأ مِن غرب الصين وينتهي في شرق أوروبا[1].

توزع الدول الإسلاميّة في القارات الأربعة على الشكل الآتي[2]:

دول غرب آسيا: فلسطين – لبنان- الأردن –سوريا– تركيا.

ومنطقة الخليج: إيران – العراق – الكويت – السعوديّة – الإمارات – قطر – البحرين – عمان – اليمن.

آسيا الوسطى وهي دول إسلاميّة وتشمل: أفغانستان – باكستان – كازاخستان – طاجكستان - أوزبكستان – تركمانستان – قيرغيزستان.

دول شرق آسيا وتشمل: بنغلادش، أندونيسيا، ماليزيا، المالديف، سنغافورة وبروناي.

شمال أفريقيا: وتشمل: مصر – السودان – ليبيا – الجزائر – تونس – المغرب – موريتانيا - مع القرن الإفريقي - الصومال.

دول العمق الأفريقي: أوغندا – بنين - بوركينا فاسو – تشاد - جزر القمر – جيبوتي – سنغال – سيراليون – توغو – غابون – غامبيا – غينيا - غينيا بيساو – كاميرون – مالي – موزنبيق - النيجر ونيجيريا.

تقع في قارّة أمريكا الجنوبيّة دولتان مسلمتان هما: سورينام وغويانا.

---

1 - The Future of the Global Muslim Population. Pew Research center.

٢ - أسماء ملكاوي، حالة العالم الإسلاميّ: أرقام ومؤشرات، موقع الجزيرة نت، ٣-١٠-٢٠٠٤.

وفي أوروبا دولة ألبانيا - البوسنة والهرسك - وكوسوفو (معترف بها جزئيًّا) بالإضافة إلى الجاليات المسلمة الكبيرة المنتشرة في أرجاء العالم.

يتّسم الموقع الجغرافيّ بالثبات، إلاّ أنَّ قيمته الاستراتيجيّة السياسيّة في تغيّر مع الزمن؛ وذلك نظرًا لتحوّل أهداف واستراتيجيّات القوى العظمى، فضلاً عن اكتشاف طرق جديدة تؤدّي إلى اضمحلال الأولى، إلى جانب ما أضافته التطوّرات التقنيّة والتكنولوجيّة مِن تحوّلات في وظيفة الموقع الجغرافيّ. وعلى الرغم من تغيّر الاستراتيجيّات الدوليّة، تبقى بعض المواقع مستمرّة في الأهميّة عبر المراحل التاريخيّة المختلفة، وذلك بفعل مركزيّتها وما يقترن به المكان مِن معطيات اقتصاديّة وفيرة، وهو ما يدعى بالموضع.

تنعكس هذه الخصائص على أهمّيّة الموقع الجغرافيّ للعالم الإسلاميّ بشكل عام والشرق الأوسط الإسلاميّ بشكل خاصّ الذي يأتي مِن خلال ما يمتلكه موقعه مِن مزايا جيّوبوليتيكيّة كانت مِن عطاء المكان، فامتداده الواسع مِن خط طول (18) غربًا عند سواحل المحيط الأطلسي و(140) عند أطراف أندونيسيا شرقًا، وبين دائرتي عرض (55) شمالاً عند الحدود الشماليّة لجمهوريّة كازاخستان الآسيويّة، ويستحوذ على ربع مساحة الكرة الأرضيّة. هناك ما يقدّر ب 1.57 مليار مسلم في العالم، منظّمة التعاون الإسلاميّ لديها 57 دولة عضوًا، والدول العشر

التي تضمّ أكبر عدد مِن المسلمين هي: الهند وأندونيسيا، وباكستان، ونيجيريا، وبنغلادش، ومصر وإيران وتركيا والجزائر والعراق. مِن هذه الدول، ليست سوى ثلاث دول عربيّة هي مصر والجزائر والعراق، معظم العرب مسلمون، ولكنْ معظم المسلمين ليسوا عربًا[1].

د- المقوّمات الجيوبوليتيكيّة الإسلاميّة

تتّضح أهميّة العالم الإسلاميّ باتساع رقعته الجغرافيّة، التي لم تقتصر على الشرق الأوسط، بل أصبح جزءًا مِن منطقة أوسع يرتبط بامتداد جيوستراتيجيّ متّصل مِن الناحية الجغرافيّة، ومِن ثَمَّ يرتبط بوحدة دينيّة ثقافيّة تؤسّس لأرضيّته التاريخيّة- الحضاريّة وتمثّل تأثيراتها المتجلّية في الأحداث السياسيّة حتّى اللحظة الراهنة. مِن هنا يمكن تصوّر مركز الثقل الجيّوبوليتيكي للعالم الإسلاميّ مِن كونه المكان الذي تتوازن فيه القوى الاستراتيجيّة، والتي تدفع التكتّلات الكبرى للسيطرة عليه والانفراد به.

يطلّ العالم الإسلاميّ على أهمّ المسطّحات المائيّة العالميّة، فالبحر المتوسّط الذي يقع حوضه الجنوبيّ بالكامل في الشمال الغربيّ ضمن العالم الإسلاميّ، وحوضه الشرقيّ في وسط العالم الإسلاميّ (الشرق الأوسط لبنان، سوريا، تركيا، فلسطين) أعظم ممرّ بحريّ في العالم، فضلاً

---

١ - أسماء ملكاوي، حالة العالم الإسلاميّ: أرقام ومؤشّرات، موقع الجزيرة نت، ٣-١٠-٢٠٠٤.

عن الإطلالات على أربعة بحار أخرى هي (الأحمر، والعربيّ، والأسـود، وقزويـن) إلى جانب الخليج الإسـلاميّ (المتنازع على تسـميته «الخليج العربي أم الفارسي»، والذي أطلق عليه الامام الخميني اسـم الإسـلاميّ) ومجموعة البحار الداخليّـة والأحواض والقنوات المائيّة المهمّة مثل قناة السـويس، الأمر الذي جعل منـه الجسر الأرضي الذي يربـط بين جزيرة العالم (آسـيا وأوروبا وأفريقيا)، كما سـهّل عمليّـات النقل البحريّ طوال العام بسبب الظروف المناخيّة الدافئة السائدة عليه؛ لوقوعه ضمن المنطقة المعتدلـة، كما أنّه بمثابة جـسر يربط الشرق والغرب، إذ يقع على شـبكة النقـل التـي تربط بين الطرفين الأكثر ثـراءً وتطوّرًا علميًّـا وتكنولوجيًّا في شرق أوراسيا وغربها.

يقدّر أنَّ ما يقرب من 220،000 سفينة تجاريّة تحمل أكثر مِن 100 مليون طن تعبر البحر المتوسّـط كلّ عام - تعدّ ثلث الشـحن التجاريّ الكلّيّ في العـالم. يتمّ نقل ما يقارب 370،000،000 طن مِن النفط سـنويًّا في البحر الأبيض المتوسّط (أكثر مِن 20 ٪ مِن المجموع العالميّ)، وتعبر البحر كلّ يـوم حـوالي 250 - 300 ناقلة نفط»[1]. وقد تزايدت الأهميّة الاسـتراتيجيّة الكبرى لمنطقة شرق البحر المتوسّـط بعد الاكتشـافات الجديدة لمصادر الطاقة (النفط والغاز الطبيعيّ) في المياه العميقة مِن شرق البحر المتوسّط،

1 - Other threats in the Mediterranean Greenpeace International. Greenpeace.org.2010

إذ تـمّ العثـور على الجـزء الرئيس مِـن احتياطيّات الطاقة المكتشـفة في المناطق الاقتصاديّة الخالصة لبلدان المنطقة[1]. إنّ الطاقة جعلت مِن مياه شرق البحر المتوسّط ذات أهمّيّة كبرى على المستويين الإقليميّ والعالميّ مِن خلال تعزيز الأهميّة الجيوبوليتيكيّة وتشكيل مصدر قوّة للمنطقة، وهو ما ينعكس على طبيعة أنماط التفاعلات السياسيّة إقليميًّا وعالميًّا[2].

أمّا البحر الأحمر، فيتميّز بموقع جغرافي واسـتراتيجيّ مهمّ؛ لأنّه ملتقى قارّتي العالم القديم، وهو حلقة وصل بين أربع مناطق إقليميّة هي: الشرق الأوسـط، والقرن الأفريقـيّ، والمحيط الهنديّ، ومنطقة الخليج. يسـتمدّ البحر الأحمر أهميّته الاسـتراتيجيّة مِـن موقعه الجغرافيّ الذي وفّر للقوى الإقليميّـة والدوليّـة إمكانيّة الوصـول إلى المحيط الهنـدي، وزادت هذه الأهميّة بعد اكتشـاف النفط في دول الخليج العربيّة. وتكمن أهميّة البحر الأحمـر في كونه يمثّـل نظامًا فرعيًّا مِن إقليم الشرق الأوسـط المضطرب والمثـير للجدل الذي يوصف بأنّه عالم بلا نهايـة، وتارةً بأنّه نهاية العالم، ويقع في قلب قوس عدم الاسـتقرار، كما حدّده برجينسـكي، وهو القوس الذي يضمّ الشرق الأوسط والقرن الأفريقيّ ومنطقة المحيط الهندي.

---

١ - زهراء عباس هادي، الجغرافيا السياسية للطاقة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، ص١١.

٢ - زهراء عباس هادي، الجغرافيا السياسية للطاقة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، ص١٢.

كما يقـع ضمن الإطـار الجيويوليتيكي لمنطقة الخليج الاسـتراتيجيّة. فللبحر الأحمر أهمّيّة اسـتراتيجيّة للأمن القومـيّ العربيّ في ثلاث دوائر: الأمن العربيّ، والأمن الأفريقيّ، والأمن العالميّ، ومركزها القرن الأفريقي. فهـو يعتـبر قناة وصل بين البحـار والمحيطات المفتوحـة، ومِن هنا تزيد أهمّيّته الاسـتراتيجيّة، سـواء أكان مِن الناحية العسـكريّة أم الاقتصاديّة أم الأمنيّـة. وهـو الطريق الرئيس الذي يمـرّ مِن خلاله نفـط الخليج العربيّ وإيـران إلى الأسـواق العالميّة في أوروبا؛ إذ تحتـاج أوروبا إلى نقل 60% مِـن احتياجاتهـا مِن الطاقة عـبر البحر الأحمر، وإلى نقـل نحو 25% مِن احتياجات النفط للولايـات المتّحدة الأميركيّة عبره أيضًا. وللبحر الأحمر دوره في التجارة الدوليّة بين أوروبا وآسـيا، وتقدّر السـفن التجاريّة العابرة للبحر الأحمر سنويًّا بأكثر مِن عشرين ألف سفينة. وتقع ثروات قاع البحر الأحمر في نطاق المنطقـة الاقتصاديّة للدول المطلّة عليه؛ إذ يمثّل العمق الاستراتيجيّ لكلّ مِن السعوديّة ومصر.

ويختصر البحر الأحمر المسـافة بين الشرق والغرب، ويُتاخم الكثير مِن المناطق الحسّاسة ذات التأثير الحيويّ، مثل منابع النيل وروافده والأماكن الإسلاميّة المقدّسة. كما أنّه يعتبر جزءًا مهمًّا في طرق الشحن البحريّ بين أوروبا، الخليج الإسـلاميّ وبحر العرب وصولًا إلى شرق آسيا؛ لذلك كان لـه الأهميّة الجيوبوليتيكيّـة الكبيرة جدًّا لما له مِـن دور كبير في الملاحة والتجارة العالميّة، والأهمّ مِن ذلك أنه ممرّ أسـاسي لموارد الطاقة مِن نفط

وغاز لغنى البلاد المحيطة به بهذه الموارد[1].

ويعتبر بحر قزوين مِن الممرّات المهمّة لدول آسـيا الوسـطى، ويشكّل حلقة الوصل لدول أوراسـيا وبوّابة العبور لأوروبا، كما يتمتّع بثروة نفطيّة كبـيرة؛ لوجود حقـل تنغيز ثاني أكـبر حقول النفط في العـالم، بعد حقل الغوار في السعوديّة[2].

ويتمتّـع بحر قزويـن أيضًا بوفرة حقول الغاز، فبحلول عام 2026 سـيتمّ تسـليم مشروع تانـاب* إلى أوروبا بمقدار 31 مليار مـتر مكعب مِن الغاز سـنويًّا. تاناب هـو أكبر مشروع للغاز الطبيعيّ في تركيـا. فمِن المتوقّع أنْ تأخـذ تركيا مكانًا خاصًّا في مجـال الطاقة العالميّة. ويمكن اعتبار مشروع تاناب مشروعًا ناجحًا مِن وجهة النظر هذه. بدأ مشروع تاناب حقبة جديدة بين أذربيجان وتركيا[3]. إذًا، يعتبر بحر قزوين ممرًّا أساسيًّا لإمدادات النفط وأنابيب الغاز والتجارة مِن دول آسـيا الوسـطى تركيا وروسيا ثمّ إلى شرق أوروبا.

---

١ - مراجعة كتاب أمن البحر الأحمر لمؤلّفه سامي عبد العزيز عثمان ،٢٠١٦ ، للكاتب: د.صالح محروس محمّد. ١٨ أيلول ٢٠١٧.

2 - Tengizchevroil.com

٣ - رئيس أذربيجان: توقيع مشروع تاناب مع تركيا حدث تاريخيّ». aa.com.tr. مؤرشف من الأصل في ٢٢ فبراير ٢٠١٨. اطلع عليه بتاريخ ٢١ فبراير ٢٠١٨.

*خط أنابيب الغاز عبر الأناضول – ومن خلال مشروع تاناب، سيتدفق غاز أذربيجان عبر جورجيا وتركيا إلى الأسواق الأوروبيّة.

البحر الأسود بحر داخليّ يقع بين الجزء الجنوبيّ الشرقيّ لأوروبا وآسيا الصغرى ويتّصل بالبحر المتوسّط عن طريق مضيق البوسفور وبحر مرمرة، ويتّصل ببحر آزوف عن طريق مضيق كيرتش[1]، ويعتبر الإطلالة البحريّة الوحيدة لدول أوروبا الشرقيّة، وأهمّ ممرّ مائيّ لروسيا (لروسيا إطلالتان للمياه الدافئة، وتعتبر نسبيًّا دولة حبيسة جغرافيًّا لولا البحر الأسود وإطلالة صغيرة جدًا على بحر البلطيق الذي يقع تحت سيطرة الناتو، وذلك لأنّ الإطلالات البحريّة الأخرى هي مناطق جليديّة)؛ لذلك فإنّ للبحر الأسود أهميّة كبيرة جدًّا مِن الناحية التجاريّة والأمن الغذائيّ وأمن الطاقة لدول أوروبا الشرقيّة وروسيا، وتعتبر تركيا (دولة إسلاميّة) المسيطرة على منفذ البحر الأسود للبحر المتوسّط لسيطرتها على مضيق البوسفور والدردنيل.

تعد كلّ هذه البحار ضمن الامتداد الإسلاميّ الذي يمكن له بحال توحّده وبروزه كقوّة إسلاميّة موحّدة السيطرة عليها، باعتبار أنّ لديها الأسباب الجغرافيّة للسيطرة عليها بشكل أكبر مِن القوى العالميّة الأخرى. وكذلك يمتدّ العالم الإسلاميّ- بإطلالة أندونيسيا، بورما، ماليزيا- على بحر الصين الجنوبي، ولكنْ بتأثير أقلّ مِن تأثيرها على المسطّحات المذكورة سابقًا.

وإذا استعرضنا المضائق التي تسيطر عليها الدول الإسلاميّة، ندرك

1 - Eker-Develi, E. Distribution of phytoplankton in the southern Black Sea. Spring and autumn 1998. Journal of Marine Systems. 39 (3–4): 203–211.

بشكل أوضح خطورة البعد الاستراتيجيّ والجيوبوليتيكيّ للعالم الإسلاميّ وأهميّته.

فقناة السـويس التي تربط بين البحر الأحمر والمتوسّـط، تشـكّل حلقة الوصل الأساسـيّة لجزيرة العالم، وتعدّ مِن أهمّ الممـرّات المائيّة للتجارة العالميّـة، ونقـل موارد الطاقة التـي يمرّ عبرها ما بـين 8 % إلى 12 % مِن حجم التجارة العالميّة أيضًا[1]. فهي ثاني أكبر ممرّ مائي بالعالم بعد مضيق ملقا، يمرّ عبرها 12 % مِن الملاحة العالميّة، 30 % مِن الحاويات المتبادلة بالعالم، 10 % مِن البترول ومشـتقّاته، 8 % مِن الغاز المسال، 14.5 % مِن الأسمدة الزراعيّة، و14.6 % مِن تجارة الحبوب.

كذلك يشـكّل مضيق باب المندب أهمّيّة اسـتراتيجيّة بالغة، حيث إنّه يعتبر قنـاة ما بين بحر الأحمـر والمحيط الهنديّ، وبين البحر المتوسـط والمحيـط الهنديّ عبر قناة السـويس. يعتبر مضيق باب المندب رابع أكبر الممـرّات مِن حيث عدد براميـل النفط التي تمرّ عـبره يوميًّا. وقد مرّ عبر المضيـق نحـو 3.8 ملايين برميل في اليـوم عـام 2013؛ أي نحو 6.7 في المئـة مِن تجارة النفـط العالميّة. وتدفّق نحو 4.8 ملايـين برميل يوميًا مِن النفط الخام والمنتجـات النفطيّة المكرّرة عبر باب المندب عام 2016 في اتّجـاه أوروبا والولايات المتّحدة وآسـيا، وفق الإدارة الأميركيّة لمعلومات

١ - عبد العزيز محمّد الشناوي، السخرة في حفر قناة السويس، ص: ٣٧٦. هلال، جابر عبد السلام، السرّ الكبير، أسرار وخفايا تأمين قناة السويس، ص:١٤٤.

الطاقــة. يمثّــل مضيق باب المنــدب أهميّة بالغة لمــصر؛ لأنّ نحو 98 في المئة مِن البضائع والســفن الداخلة التي تمرّ عبر السويس، تمرّ مِن خلال المضيق[1]. هذه الأرقــام تعتبر صغيرة بالمقارنة بمضيق هرمز، والذي يعبر مِــن خلاله 40 % مِن حاملات النفط في العــالم[2]، فوفقًا لإدارة معلومات الطاقة الأمريكيّة، فإنَّه في عام 2011، تمّ نقل ما معدّله 14 ناقلة نفط في اليوم مِن الخليج العربيّ عبر المضيق محمّلاً بـ 17 مليون برميل (2،700،000 م 3) مِن النفط الخام. ويقال إنّ هذا يمثّل 35 % مِن شحنات النفط المنقولة بحــرًا في العالم، و20 % مِن النفط المتداول في جميع أنحاء العالم. وذكر التقريــر أنّ أكثر مِن 85 % مِن صادرات النفط الخام، ذهبت إلى الأســواق الآسيويّة، مع اليابان والهند وكوريا الجنوبيّة والصين أكبر الوجهات[3].

يمثّــل الممر المــائيّ التركيّ (البوســفور - الدردنيــل) الرابط المائي بين شــمال شرق البحر المتوسّــط والبحر الأســود عبر بحر إيجه؛ وبذلك فإنَّ هذا الممرّ يُعدّ حلقة وصل تربط قارتي آسيا وأوروبا[4]. يبلغ عدد الناقلات

---

١ - «باب المندب بالوقائع والأرقام». الشرق الأوسط. مؤرشف من الأصل في ٢٧ يوليو ٢٠١٨. اطلع عليه بتاريخ ٠٢ فبراير ٢٠٢١.

2 - World Oil Transit Chokepoints.

3 - Alejandra Roman & Administration. «Strait of Hormuz». The Encyclopedia of Earth. . 2015.

٤ - زهراء عباس هادي، الجغرافيا السياسية للطاقة في الحوض الشرقي للبحر المتوسّط، ص٢٢.

التي تمرّ مِـن المضيقين التركيّين 37 ناقلة يوميًّا و13335 ناقلة سـنويًّا. ما يقارب 24 بالمئة من حمولة البضائع هي مِن منتجات الطاقة، النفط والغاز الطبيعيّ يأتي مِن أفريقيا والخليج العربيّ والبحر الأسود وإلى حدٍّ كبير مِن روسيا ويمرّ مِن مضيق البوسفور[1].

كما أنَّ مضيق جبل طارق يعتبر مِن الممرّات المهمّة جدًّا لجزيرة العالم الذي يعتبر الممرّ المائي الأسـاسي الأوّل للدخول إلى البحر المتوسّـط، هذا المضيق الآن تحت السـيطرة الإنكليزيّة والإسبانيّة. ويُعدّ هذا المضيق المدخـل الرئيس للبحر المتوسّـط باتسـاع ما يقرب مِن 13كـم فقط عند أضيـق نقطة، إلّا أنّه يظلّ الشريان الحيويّ الموصل بين العالميّن: المتقدّم في غـرب أوروبا وشرق المحيط الأطلسي والولايـات المتّحدة الأمريكيّة وكنـدا مِن ناحية، والعالم النامي في أفريقيا وآسـيا مِن ناحية أخرى. وبناءً عليـه، فإنَّ مجموع علاقات البحر المتوسّـط مرتبـطٌ بالضرورة بمجموعة علاقات المحيـط الأطلسي والمحيط الهندي والمحيـط الهادئ، كما أنَّ تأثير هذه العلاقـات يتقيّد بالأبعاد الجغرافيّة للوحدات السياسـيّة المطلّة عـلى هذا البحر، بل يمتدّ أيضًا إلى الحيّـز الجيّوبوليتيكي للبلدان المتأثّرة جميعًـا بتلك العلاقـات المباشرة أو غير المباشرة بحكـم عوامل تكوينها الجيّوبوليتيـكي، التي هي عوامـل واحدة، وإنْ تباينـت محليًّا بالنظر إلى

١ - زهراء عباس هادي، الجغرافيا السياسية للطاقة في الحوض الشرقي للبحر المتوسّط، ص٢٤.

الكـمّ، ودرجة التأثير، والتطوّر الحضـاريّ، والموقع الجغرافيّ، فعلاقات المكان تؤثِّر في التشكيل المحلّي للمناطق المختلفة[1].

إذًا، يحظـى العالم الإسـلاميّ بإمكانيّة السـيطرة عـلى جميع المداخل المائيّة للبحر الأبيض المتوسّط.

أمّا ممرّ ملقا الذي يقع بين أندونيسـيا وماليزيا (دول إسـلاميّة)، فهو مِن أكثر الممـرّات العالميّة ازدحامًا، ويعتبر الشريان الأسـاسيّ لدول جنوب شرق آسـيا. مِن منظور اسـتراتيجيّ واقتصاديّ، يعدّ مضيق ملقا أحد أهمّ ممرّات الشـحن في العالم، وهو قناة الشحن الرئيسة بين المحيط الهندي والمحيـط الهادئ، ويربط بين الاقتصادات الآسـيويّة الرئيسـة، مثل الهند وتايلاند وإندونيسـيا وماليزيا والفلبّين وسنغافورة والصين واليابان وتايوان وكوريـا الجنوبية. يعـدّ مضيق ملقا جزءًا مِن طريـق الحرير البحريّ الذي يمتدّ مِن الساحل الصيني باتجاه الطرف الجنوبي للهند إلى مومباسا، ومِن هناك عبر البحر الأحمر عبر قناة السـويس إلى البحر الأبيض المتوسّـط، ومِـن هناك إلى منطقة البحر الأدرياتيكي العليا إلى شـمال إيطاليا، محور تريسـت مع وصلات السكك الحديديّة إلى وسط أوروبا وبحر الشمال[2].

---

١ - محمّد أزهر سعيد السماك، الجغرافيا السياسيّة الحديثة، ص٣٧٨.

2 - Marcus Hernig: Die Renaissance der Seidenstraße (2018) pp 112. (بالألمانية). And, The Maritime Silk Road in South-East Asia.

يمـرّ أكثر مِـن 94000 سـفينة[1] عبر المضيـق كلّ عام؛ مـماّ يجعله أكثر المضائق ازدحامًا في العـالم[2]. يحمل حوالي ٪25 مِن البضائع المتداولة في العـالم، بما في ذلك النفط والمنتجات الصينيّة والفحم وزيت النخيل والقهوة[3]. يمرّ حوالي ربـع النفط المنقول عن طريق البحر عبر المضيق، وخاصّة مِن موردي الخليج الإسـلاميّ إلى الأسـواق الآسـيويّة. في العام 2007، تمّ نقل ما يقدّر بـ 13.7 مليون برميل يوميًا عبر المضيق، وزاد ذلك إلى مـا يقدر بنحو 15.2 مليون برميـل يوميًا في العام 2011. بالإضافة إلى ذلك، فهو أيضًا واحدة مِن أكثر نقاط اختناق الشـحن ازدحامًا في العالم؛ لأنّه يضيق إلى 2.8 كيلو متر فقط (1.5 ميل بحري) في قناة فيليب[4].

إنّ إطلالـة العالم الإسـلاميّ على أهمّ وأخطر المضائـق العالميّة يعطيه التفـوّق الاسـتراتيجيّ الجيّوبوليتيـكيّ ما يجعله في موقـع محور العالم،

1 - Aljazeera.net Archived 201105-06- at the Wayback Machine (in English)
2 - Strait of Malacca - World Oil Transit Chokepoints Archived 201422-11- at the Wayback Machine، Energy Information Administration، U.S. Department of Energy
3 - Freeman، Donald B. (2003). The Straits of Malacca: Gateway or Gauntlet?. McGill-Queen›s University Press. ISBN 07-2515-7735-. A book review citing this information can be found at University of Toronto Quarterly، Volume 74، Number 1، Winter 20045/، pp. 528530-
4 - «International - U.S. Energy Information Administration (EIA)» (PDF). www.eia.gov. Archived (PDF) from the original on 22 November 2014. Retrieved 28 April 2018.

ويعطيه القدرة على شلّ الملاحة البحريّة العالميّة والتجارة العالميّة بالنتيجة وقطع إمدادات النفط والغاز عن العالم وتهديد أمن الطاقة، والتأثير بشكل كبير على الصناعة العالميّة المرتبطة بالنفط والحاجة الملحّة للغاز. في ظلّ وجود قوى أخرى في العالم لديها مخزون نفطيّ كبير مثل روسيا (بالإضافة إلى النفط تمتلك روسيا أكبر مخزون غاز) وفنزويلا وحتّى أمريكا (نفط صخريّ)، فإنّ فعل كهذا لن يشلّ القطاعات المرتبطة باستيراد موارد الطاقة بشكل حاسم، إلّا أنَّ له أثرًا سلبيًّا كبيرًا ممّا يؤثّر على الاقتصاد.

شكَّل العالم الإسلاميّ مركزًا جغرافيًّا رئيسًا للموارد، ثمّ الآليّة الإنتاجيّة للسوق العالميّة وتنافس القوى الكبرى خلال المراحل التاريخيّة المتعاقبة، ويعود ذلك إلى ما يتمتّع به هذا الإقليم مِن إمكانات يمكن إبرازها على النحو الآتي:

يتركّز معظم احتياطيّ الهيدروكربون في العالم الإسلاميّ؛ إذ يشكّل نسبة 69 % مِن الاحتياطيّ العالميّ من النفط و57 % مِن الغاز الطبيعيّ، وتتوزّع أهمّ مناطق الإنتاج في الخليج العربيّ ودول جنوب شرق آسيا (ماليزيا وأندونيسيا وبروناي) ووسطها الإسلاميّ وجمهوريّات آسيا الوسطى وأذربيجان، فضلاً عن ليبيا والجزائر ونيجيريا والكاميرون في أفريقيا[1].

١ - جدة عبد الرزاق الزهراني، مجلّة الرياض، نقلاً عن إحسان أوغلي الأمين العام لمنظّمة التعاون الإسلاميّ. ٢٠١٠/١/١٣. العدد ١٥٩٠٨ .

ينتج العالم الإسلاميّ 47 % من الإنتاج العالميّ من القصدير[1]. أمّا من حيث المعادن اللافلزيّة، فتحتلّ الفوسفات المرتبة الأولى من الإنتاج العالميّ، وتعدّ المغرب أهمّ دول العالم الإسلاميّ من حيث الاحتياطيّ، إذ يوجد فيها 70 % من موجودات الفوسفات في العالم. يستحوذ العالم الإسلاميّ أيضًا على 21 % من مساحات الأراضي الزراعيّة، و3 % من مجموع المحاصيل العالميّة، فضلاً عن 40 % من مجموع صادرات المواد الخام، موضحًا أنَّ معدّل التجارة البينيّة بين الدول الأعضاء في المنظّمة قد ازداد من 14.5 % لعام 2004 إلى 17.03 % لعام2010 [2].

يمتلك العالم الإسلاميّ إمكانات كبيرة جدًّا ومتنوّعة؛ إذ يضمّ ستّة أنواع رئيسة من المناخات، ما يُميّز العالم الإسلاميّ عن البنيات والأقاليم الطبيعيّة الأخرى من العالم؛ إذ ساعد ذلك على خلق تكامل زراعيّ.

ويشكّل الإسلام ثاني أكبر دِينٍ في العالم. وفقًا لدراسة أجريت في عام 2015، يبلغ تعداد المسلمين 1.8 مليار شخص، ويشكّلون حوالي 24.1 % من سكان العالم[3]. ما يعطي للإسلام قوّة بشريّة ديموغرافيّة كبيرة جدًا، وهذا العدد مستمرّ

---

١ - أسماء ملكاوي، حالة العالم الإسلاميّ: أرقام ومؤشّرات، موقع الجزيرة نت، ٣-١٠-٢٠٠٤.

٢ - مريم التايدي – الرباط، يختزن المغرب ٧٠ ٪ من موجوداته في العالم، موقع الجزيرة نت، ٢٠٢٠/١٢/٧.

3 - Why Muslims are the world)s fastest-growing religious group. Pew Research Centre. April 2017.

في الزيادة، وبحلول عام 2030، سوف يشكّل تعداد المسلمين أكثر مِن ربع عدد السكّان في العالم[1]. واللافت نسبة الشباب المرتفعة مقارنةً مع أمم أخرى.

إنَّ عدد السكّان مهمٌّ في قوّة الدولة، فالبلد يعتمد على سكّانه في الزراعة والصناعة والتجارة؛ أي إنّ البلد القليل السكّان، نراه يعتمد كثيراً على الأيدي العاملة الأجنبيّة في إدارة شؤونه[2]، الأمر الذي يؤدّي إلى بروز مشكلات اجتماعيّة وسياسيّة قد تؤثّر في استقرار البلاد. كما أنّ العلاقة بين عدد السكّان وقوّة الدولة، تأتي مِن خلال تفاعلات معقّدة بين السكّان وقدراتهم على استغلال الموارد الطبيعيّة المتاحة وتوزيع الثروات والسياسات التنمويّة التي تستثمر كلّ هذه الإمكانات وفق أحدث الأساليب العلمية والتقنيّة، الأمر الذي يحقّق اكتفاءً ذاتيًّا وفائضًا للتصدير، ومِن ثَمَّ يخلق منها قوّة اقتصاديّة مؤثّرة في المستوى الدولي، وذلك بتوافر حجم سكّانيّ كبير[3].

---

1 - Islam Is the Fastest Growing Religion in the World. VOA - Voice of America English Newshttps://www.voanews.com. May 7، 2016.

*يعتبر ألكسندر دوغين في كتابه أسس الجيوبوليتيكا أنّ القوّة البحريّة تمثّل الحضارة الحديثة، والقوّة البريّة الحضارة التقليديّة، وأنَّ الهويّة الجيوبوليتيكيّة للقوّة البريّة العائد لليابسة والقوّة البحريّة العائدة للبحر لهي أكثر عمقًا وأهميّة من الشكل الإيديولوجي.

٢ - عبد الرزاق عباس حسين، الجغرافيا السياسية: التركيز على المفاهيم الجيوبوليتيكيّة، ص٣٣٧.

٣ - عدنان حسين، الجغرافيا السياسيّة والاقتصاديّة والسكّانيّة للعالم المعاصر، ص٣١.

المطلب الثاني: التيلوروكراتيا & تالاسوكراتيا.

«القانون الأساسيّ للجيّوبوليتيكا هو إقرار الثنائيّة المنعكسة في التكوين الجغـرافيّ للكوكـب الأرضي وفي النمطيّة التاريخيّـة للحضارات. وهذه الثنائيّـة تعـبّر عن نفسـها في مواجهـة «التيلوروكراتيا» أي (القـوّة البريّة) و«التالاسوكراتيا» (القوّة البحريّة)»[1].

ما هي هذه الثنائيّة «التيلوروكراتيا & تالاسوكراتيا» وما ارتباطها بالإسلام والحكومة العالميّة؟

ترتبط «التيلوروكراتيا»، «القوّة البرّيّة» بثبوتيّة المكان ورسـوخ توجّهاتها وخصائصها النوعيّة، أمّا على مسـتوى الحضارة فيتجسّد ذلك بالاستقرار، في الـروح المحافظـة، في المعايير الحقوقيّة الصارمـة[2]؛ أي هي حضارة ثابتة تقليديّة تتميّز بالتقاليد والقيم والمثل المتوارثة، تعتمد على الجماعة، وتفتقر إلى طابع الحداثة والحركة النشطة.

أمّا «التالاسـوكراتيا»، «القوّة البحريّة»، فتمثّـل نمطًا لحضارة تقوم على أسس مغايرة، نمط ديناميكيّ، نشيط الحركة، ميّال إلى التطوّر التقنيّ. ومِن أولويّاتـه التنقّل، وخاصّة البحـريّ التجاري، ويعتمد عـلى روح المبادرة الفرديّـة، بينما تحرّف المعايـير الخلقيّة والحقوقيّة لتصبح نسـبيّة متنقّلة، ومثل هذا النمط الحضاري يتطوّر بحيويّة وبسهولة، فيبدّل مظاهره الثقافيّة

١ - ألكسندر دوغين، أسس الجيوبوليتيكا ومستقبل روسيا الجيوبوليتيكي، ص ٦٠.
٢ - ألكسندر دوغين، أسس الجيوبوليتيكا ومستقبل روسيا الجيوبوليتيكي، ص ٦٠.

الخارجيّـة، فلا تبقى ثابتةً إلّا بالتشـابه الضمني مع التركيبـة العامّة[1]. أي حضارة معاصرة حديثـة ماديّة لا تعطي أهمّيّة للقيم والمثل بقدر ما تعطي أهميّة للحداثة والتطوّر والتجارة العالميّة.

إنَّ أغلب التجارب البشريّة التي ذكرت في الجزء الأوّل مِن هذه السلسلة- وغيرها مِن التجارب التي لم تذكر على الأغلب- تتمتّع بهويّة جيوبوليتيكيّة أحاديّـة إمّا «تيلوروكراتيا» وإمّا «تالاسـوكراتيا». بعبـارة أوضح، هناك قوّة يطغـى عليها الطابع الـبرّي في مواجهة قوّة يطغى عليهـا الطابع البحري، البرّ في مواجهة البحر، أو حضارة البرّ التقليديّة الثابتة مقابل حضارة البحر الحديثة المتطوّرة الماديّة.

«الرؤيـة الجيوبوليتيكيّـة تمثّـل أنمـوذج تطـوّر الثنائيّـة العالميّة حتّى أحجامها القصوى. اليابسة والبحر يبسطان مواجهتهما الأولى على أرجاء العـالم كلّه. وما التاريخ الإنسـانيّ إلّا تعبير عن هذا الـصراع وطريقًا إلى وسمه بالسمة المطلقة. وهذا التعبير الأكثر تعميمًا عن قانون الجيوبوليتيكا الأهمّ- قانون ثنائيّة العفويّتين البرّ في مواجهة البحر»[2].

وقد ذكرنا للتّو أنَّ العالم الإسلاميّ على امتداده الواسع يتمتّع، على غير العادة، بثنائيّة هوياتيّة جيّوبوليتيكيّة، تيلوروكراتيا مع تالاسوكراتيا، استثنائيًّا

---

١ - ألكسندر دوغين، أسس الجيوبوليتيكا ومستقبل روسيا الجيوبوليتيكي، ص ٦٠-٦٢.

٢ - ألكسندر دوغين، أسس الجيوبوليتيكا ومستقبل روسيا الجيوبوليتيكي، ص ٦٤.

العالم الإسلاميّ قد وحّد اليابسة والبحر وجمع بين الحضارة التقليديّة القائمة على المثل والمعنويّات والأخلاق والقيم والجماعة، وبين الحضارة الحديثة التجاريّة المادّيّة والنشيطة الحركة. ولعلّ هذه الثنائيّة الجيوبوليتيكيّة والثنائيّة الحضاريّة تعكس حقيقة الإسلام وحضارته، كونه يتمتّع بحضارة تقوم بالأساس على المنظومة الأخلاقيّة الكاملة والشاملة، وعلى المثل والجماعة، وحضارة تحثّ على العلم والتطوّر والتجارة والحداثة أيضًا، فأوّل آية نزلت على محمّد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾[سورة العلق: 1]، فحثّ الإسلام على طلب العلم والتطوّر، وحثّ على التجارة وبارك بها أيضًا[1]. إذًا، الثنائيّة الحضاريّة للإسلام بين التقاليد والحداثة، المفهوم والمصداق، العلم والقيم الموروثة، المُثل والتجارة، البعد الميتافيزيقي والبعد المادّيّ، هذه الثنائيّات موجودة في نموذج الإنسان الكامل، في المنظومة الأخلاقيّة التي تعمل على نصفي الدماغ للعقل البشريّ لتحقّق الوسطيّة، هذه الثنائيّة الحضاريّة تعكس حقيقة الوسطيّة والتوازن للإسلام، للمنظومة الأخلاقيّة التي وُجدت لتحقّق هذا التوازن في ذاتيّة الإنسان ومحتواه لينعكس على سلوكيّاته.

قدّم دين محمّد النبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم المنظومة

---

١ - بها «تاجروا بارك الله لكم، فإني سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) يقول: الرزق عشرة أجزاء: تسعة أجزاء في التجارة، وواحد في غيرها، محمّد الريشهري، الخير والبركة في الكتاب والسنّة، ص٢٩٢.

الأخلاقيّة الأمثل للعالم، لتكون نموذجًا استثنائيًّا لا مثيل له في التاريخ، وكانت الجغرافيا والهويّة الجيّوبوليتيكيّة أحد معالم هذه الاستثنائيّة الفريدة.

● **الخلاصة:**

يعتمد التمهيد الأوّليّ لصياغة نظريّة المحور المركزيّ على أسس تاريخيّة، وحضاريّة، وجغرافيّة، واقتصاديّة، واستراتيجيّة وجيوبوليتيكيّة. كمحصّلة يمكن القول: يتمتّع العالم الإسلاميّ بمقوّمات مميّزة منها:

- التمتّع بتاريخ عريق وحضارة عالميّة.
- وجود هُويَّة فطريّة قويّة عالميّة وشاملة.
- السيطرة على أغلب مضائق العالم المرتبطة بحركة الملاحة البحريّة والتجارة العالميَّة وأهمّها، وحركة نقل لمصادر الطاقة.
- الإطلالة على أهمّ المُسطَّحات المائيّة العالميَّة، والقدرة على التأثير على حركة الملاحة البحريّة للشحن والتجارة العالميَّة.
- يتمتّع العالم الإسلاميّ بقوّة بحريّة؛ أي حضارة حديثة، تالاسوكراتيا (سيأتي شرحها في البحث التالي).
- يتمتّع العالم الإسلاميّ بقوّة بريّة؛ أي حضارة تقليديّة، تيلوروكراتيا.
- يمتدّ العالم الإسلاميّ إلى آسيا الوسطى، وهذا يعني إمكانيّة السيطرة على منطقة آسيا الوسطى والبلقان الأوراسي، ما يعني التأثير الكبير على

أوروبـا الشرقيّـة، وما يعنـي إمكانيّة السـيطرة على قلب العـالم بالنتيجة (بحسب ماكندر).

■ يمتدّ العالم الإسلاميّ إلى المناطق الساحليَّة (Rim land) وهذا يعني إمكانيّة السيطرة على المنطقة الهامشيّة، ويعني إمكانيّة السيطرة على منطقة أوراسيا (بحسب سبايكمن).

■ يتمتّع العالم الإسلاميّ بأمن طاقويّ كبير جدًا.

■ يتمتّـع العالم الإسـلاميّ بالقـوّة البشريّة «الديموغرافيـا»، خصوصًا عنصر الشباب.

■ تنوّع الأقاليم والمناخ ما يؤثّر على الأمن الغذائي والتنوّع الزراعيّ.

■ بـشرط التوحّد والعمـل المركز والموجّه تحت راية الإنسـان الكامل مخلّـص البشريّة الإمام المهديّ، عجّل اللـه فرجه، ومع اختلاف الأقاليم وتنوّعها وفي ظلّ قوّة بشريّة كبيرة جدًا، فكلّ هذه المؤشّرات تشكّل ظروفًا جيّدة ومؤاتية لنشـوء قوّة عالميّـة تحظى بالأسـباب الموضوعيَّة لتحقيق الريـادة في مختلف المجالات العلميّة والاقتصاديّـة والصناعيّة والزراعيّة والتكنولوجيّة والعسكريّة.

تنقسم الأمّة الإسلاميَّة إلى عدّة محاور:

*هذا التقسيم على أساس القرب الجغرافي مِن مكّة محور العالم الإسلاميّ.

المحـور الأوّل: وهو محور القلب الإسـلاميّ، ويشـمل شـبه الجزيرة

العربيّة، العراق، بلاد الشام.

المحور الثاني: وهو محور دول المركز الإسلاميّ، ويشمل إيران، مصر، تركيا.

المحـور الثالـث: وهو محـور دول المجال الاسـتراتيجيّ الإسـلاميّ، ويشمل دول آسيا الوسطى ودول القوقاز وشمال أفريقيا.

المحـور الرابع: وهو محور دول المجال الحيوي الإسـلاميّ، ويشـمل دول شرق وجنوب شرق آسيا ودول أوروبا المسلمة.

المحـور الخامس: وهو محو دول الشَّـتات الإسـلاميّ، ويشـمل دول العمق والجنوب الأفريقيّ وباقي الدول في القارات الباقية.

الفصل الثالث:
المشروع العالميّ وحتميّة الجغرافيا:

شـكّل الشرق الأوسـط -قلب العالم الإسـلاميّ- على مرّ التاريخ محطَّ أطـماع القوى العظمـى التاريخيَّة والحديثة، فقد شـهدت هـذه المنطقة صراعات بين أهمِّ الإمبراطوريَّات، بدءًا بالامبراطوريَّة الفارسيَّة والرومانيَّة، ومن ثمَّ بين المسلمين والفرس، والمسلمين والروم، وصولاً إلى الصراعات التي نشهدها منذ عصر الاسـتعمار إلى يومنا هذا، فالتاريخ يقول: إنَّ هذه البقعـة الجغرافيّة شـكّلت محورًا للعديـد من الحـركات العالميَّة، ونقطة انطلاق قويّة لكلِّ مَنْ يسـعى إلى العالميَّة. ولكنْ ما يهمنا الآن هو البحث فيما هو حديث، لذا سنقف في عجالة عند تجربتَيْن تثبتان ما تقدّم بيانه:

● أوّلاً: التجربة الأولى الاستعمار الفرنسيِّ والبريطانيِّ:

بعـد انتهاء الحرب العالميَّة الأولى وسـقوط آخر الخلافات الإسـلاميَّة الباطلـة -السـلطنة العثمانيّـة-، أصبح الشرق الأوسـط جغرافيـا مفتوحةً للاستعمار الفرنسيِّ والبريطانيِّ-وبعد الفراغ الذي سبّبه انهيار العثمانيين-، تـدرك فرنسـا والمملكة المتّحـدة البريطانيّـة أهمِّيَّـة هذه المنطقـة دينيًّا وجغرافيًّا وثقافيًّا وحضاريًا، وتدرك أيضًا أنَّ أيَّ قيام لدولة قويَّة موّحدة في هذه الجغرافيا يعني تهديد أوروبا بالحدّ الأدنى حضاريًّا وثقافيًّا واقتصاديًّا؛ لأنّـه من المعلـوم أنَّ أعظم حضـارات العالم ظهرت في هـذه المنطقة، الحضارة الفارسيّة في إيران، والفراعنة في مصر، والكنعانيّون والآشوريّون والكلدانيّون في العراق، والآراميّون والفينيقيّون في سـوريا ولبنان، وطبعًا

بالاضافة إلى الحضارة الإسلاميَّة وقوّتها الروحيَّة والأخلاقيّة، إذ تنطلق هذه المنطقة وعلى نحوٍ إستثنائيٍّ من قوّة حضاريّة تاريخيّة لا مثيل لها في التاريخ، وهذا يعني أنَّ قيام أيِّ دولة بالاستناد إلى هذا الموروث الحضاريِّ الثقافيِّ العظيم، يعني قيام دولة قويّة جدًا، ولا يمكن للدولة التي تقوم على نحوٍ سليم في هذه المنطقة إلّا أنْ تكون قويّة جدًا. لذا، ومع الأخذ بالاعتبار ما تقدّم بيانه من قبل، كان لابدَّ مِن الجهة المستعمِرة -فرنسا والمملكة المتّحدة البريطانيّة- مِن تدمير هذا الموروث الحضاري والثقافي، نزع الهُويَّة الحضاريّة والثقافيّة مِن وجدان وجينات الإنسان العربي المسلم، نزع الهُويَّة الجماعيّة وتثبيت الهُويَّة الفرديّة. باختصار، كان لا بدّ مِن تعرية أو تفريغ ابن هذه المنطقة من كلِّ أسلحته ونقاط قوّته، حتَّى يبقى ضعيفًا وغير قادر على النهوض.

ولهذا عمد الاستعمار الفرنسيُّ والبريطانيُّ، وعلى مدار عقود مِن الزمن، ترسيخ فكرة الانحطاط الحضاريِّ، والتخلّف الإسلاميِّ، والحاجة إلى الغربيِّ والتقنيَّة الغربيّة، ومِن ثَمَّ تثبيت المعايير الغربيّة وقيمه. فهذه المنطقة يجب أنْ تبقى مقهورةً ومتخلّفة؛ لأنَّ الأوروبي يدرك قوّة الإسلام وتأثيره على الإنسان والمجتمع، أضف إلى أنَّ الشرق الأوسط وتركيا باعتبارهما خاصرة أوروبا الضعيفة، ولأنَّها تملك قوّة حضاريّة ثقافيّة دينيّة قويّة جدًا ما يضع أوروبا في مركز التهديد إزاء قوّة ناشئة في هذه المنطقة. فالديانة الأكثر شيوعًا بين الأوروبيين هي الديانة المسيحيَّة، وهذا بفعل التأثير

الثقافيِّ والدينيِّ مِن هذه المنطقة على أوروبا؛ لأنَّ المسيح هو عربيٌّ، وبالتحديد عراقيٌّ كما يقول بعضهم، أو شاميٌّ كما يقول آخرون، ولكنْ يبقى أنَّه ابنُ هذه المنطقة، وقد انتشر في كلّ أوروبا دينٌ ظهر مِن هذه المنطقة، والشخصيَّة الأكثر قوّة واحترامًا وتأثيرًا في أوروبا وكلّ البلدان الغربية المسيحيَّة، هي شخصيّة تنتمي إلى هذه الجغرافيا، إذًا يجب أنْ يُنزع مِن المسيحيَّة كديانة، ومِن المسيح عليه السلام كصاحب هذه الديانة، طابع الشرق أوسطيَّة، يجب أنْ يُنزع منهم الهُويَّة المكانيَّة التي احتضنت هذا المشروع، وهذا مقصود وهادف. والآن مَنْ منا عندما تُذكر الديانة المسيحية يتذكّر العرب والمشرقيِّين؟ وهذا مقصود مِن الغربي لنزعه الشرعيّة عن هذه المنطقة، ولإضعاف تأثيرها الحضاريّ والديني والثقافيّ، وإطلاق صورة نمطيّة متشدّدة متخلّفة لا ترتبط بحضارتها وتاريخهاعليها، لكي تبقى محلَّ نفور واستهزاء وتنمُّر، وتخرج مِن دائرة الجذب والتأثير العالميّ.

وقد توَّج الاستعمارُ البريطانيُّ بالتنسيق مع الفرنسيِّ نشاطه في هذه المنطقة بزرع ربيبته إسرائيل بالقوّة، وأحد أهمّ أسباب إصرار بريطانيا تحديدًا على المشروع الصهيوني وفرض إسرائيل بالقوّة؛ لأنَّ إسرائيل هذه ستعمل على نحوٍ دائمٍ على تخلُّف العرب والمسلمين وهزيمتهم، وتعزيز الوهم الغربيِّ في عقولهم.

ومِن دون أنْ ننسى، أنَّه ومع بداية القرن العشرين، بدت بوادر وجود نفط في هذه المنطقة، وهذا يعني أنَّ لهذه المنطقة أهمِّيَّة اقتصاديَّة كبيرة (انظر:

تيموثي ميتشـل، ديموقراطيّة الكربون السـلطة السياسيّة في عصر النفط)، بالإضافـة إلى أهمِّيَّتها الحضاريّة والدينيّة والثقافيّـة، وهذا ما ضاعف مِن أهمِّيَّة هذه المنطقة للبريطانيِّ والفرنسيِّ.

● **ثانياً: التجربة الثانية هيمنة الولايات المتّحدة الأمريكيَّة:**

أكملت الولايات المتّحـدة الأمريكيَّة وريثة المملكة المتّحدة البريطانيَّة سياسـة الهيمنة والتحكّم بالشرق الأوسـط، وكان ذلـك مِن خلال الدعم المفـرط لابنتها إسرائيـل، وبتأمـين الحماية والدعم المـشروط للمملكة العربيّة السعوديّة.

فقد شـكّل الشرق الأوسـط للولايات المتّحدة الأمريكيّـة مطلع الألفيّة الجديـدة تحديدًا، جغرافيا اسـتراتيجيّة مُهمّة للغاية وربمَّا تكون الأولويّة، ويرجع الفضل في ذلك إلى هنري كيسـنجر ومِن ثَمَّ زبينجو بريجنسـكي، حيـث توَّجت أمريكا اهتمامهـا بهذه المنطقة بغزو العـراق، (بغضّ النظر عن بعض الدوافع الأيديولوجيّـة التي دفعت الإنجيليين إلى الهجوم على جغرافيا؛ كالعراق باعتبارها أرض الأشرار أو المكان الذي سـيخرج منه أو سـيعتمد عليه الذي يعدُّونه الدجالَ، وهو في الحقيقة المخلِّص الموعود المهديّ الـذي يحاربونه ويمنعـون خروجه)، لكنَّ السـيطرة على العراق بالإضافة إلى الهيمنة الكبيرة جدًا في ذلك الحين على شبه الجزيرة العربيّة، يعني تكبيل المنطقة والسـيطرة على أهمِّ منابع النفط، والسـيطرة على أهمّ

مضائق العالم ومسارات نقل النفط والشحن التجاري العالميّ.

فمن منتصف القرن العشرين وصولاً إلى بداية القرن الحادي والعشرين، أدَّى النفط دورًا سياسيًّا استراتيجيًّا جيوبوليتيكيًّا، واقتصاديًّا مُهمًّا للغاية على المستوى العالميّ؛ لذا شكَّل الشرق الأوسط باعتباره أحد أهمِّ مصادر النفط -والغاز مؤخّرًا- في العالم جغرافيا أساسيّة لمن يريد أنْ يتحكَّم بأمن الطاقة العالميّ وبالاقتصاد العالميّ، وقد استفادتِ الولايات المتّحدة الأمريكيّة مِن هذه المنطقة، خصوصًا بعد إعلان البترودولار كثيراً في الضغط على أعدائها، لا بل على حلفائها أيضًا كأوروبا واليابان.

وكان مِن أحد أهمّ معالم الصراع الحاصل مؤخّرًا بين القوّة المهيمنة؛ أي الولايات المتّحدة الأمريكيّة والقوّة الصاعدة الصين الشعبيّة، هو صراع على الشرق الأوسط لما يمثِّل الشرق الأوسط مِن أهميّة بالغة - لأسباب ذكرناها في الأعلى-، ولكنْ قبل ذلك قد يقول أحدهم: إنَّ أمريكا لم تعُد بحاجة إلى نفط هذه المنطقة، لذلك فلم يعد الشرق الأوسط مهمًّا بالنسبة إليها، ولم يعد الشرق الأوسط بتلك الأهمِّيَّة كما كان سابقًا.

أقول: صحيح أنَّ الولايات المتحدة الأمريكيَّة تملك أكبر مخزون نفطيٍّ في العالم، وتملك أيضًا أكبر صناعة للنفط الصخريِّ في العالم، وبغضّ النظر عمّا إذا كانت الولايات المتّحدة حقًا بحاجة إلى هذا النفط أم لا، لكنَّ الأكيد أنَّ الولايات المتّحدة الأمريكيَّة تدرك أهمِّيَّة هذه المنطقة، وحاجة أيّ قوّة إقليميّة أو عالميّة لها، فكيف بالصين المشتري الأوّل للنفط والغاز

في العالم، والتي تُعدُّ مصنع العالم وبحاجة دائمة إلى أسواق جديدة لتعزِّز من اقتصادها، وكونها تبحث دائمًا عن بدائل جديدة للولايات المتّحدة الأمريكيَّة وربمّا بعض الدول الأوروبيّة. وبناءً عليه، فإنَّ أيَّ تقصير أو أيّ فراغ تتسبّب به الولايات المتّحدة في هذه المنطقة خصوصًا، ستملؤه الصين مباشرةً، وهذا ما سيعزِّز من قوّتها الاقتصاديّة والسياسيّة، وستؤثّر على أوروبا والولايات المتّحدة. فإذا سلّمنا جدلاً أنَّ الشرق الأوسط لم يعد مفيدًا لأمريكا، لكنّ أمريكا من المستحيل أنْ تتخلّى عنه أو تخرج منه طوعًا باختيارها - من دون الظروف القهريَّة التي تجبرها على التقهقر- لأنَّ خروجها هذا ستستغلّه مباشرةً قوى أخرى منافسة لها -كإيران وروسيا والصين تحديدًا - وهذا ما سيضاعف من قوّة خصوم الولايات المتحدة الأمريكيّة وأعدائها، وهذا ما لن تسمح به أمريكا طالما هي قادرة على ذلك؛ لذا فالشرق الأوسط لن يصبح في أيِّ وقت من الأوقات دون أهميّة استراتيجيَّة عالميّة. ويمكن أنْ نستدلَّ على إثبات هذه القضيّة بدليل في غاية الأهمِّيَّة يثبت أهّمية الشرق الأوسط للولايات المتّحدة الأمريكيّة، وهي أنّ أكبر سفارتين في العالم هما: سفارة أمريكا في العراق، وسفارة أمريكا في لبنان، وهي قيد الإنشاء في يومنا الحالي، فإذا كان الشرق الأوسط ليس بهذه الأولويّة الكبيرة للولايات المتّحدة، فلماذا تملك أكبر سفارتين لها في الشرق الأوسط؟ نعم نفهم اختيارها للعراق، ولكنْ لماذا تبني اليوم سفارة توازيها في المساحة والعظمة في لبنان إذا لم تعد تهتمّ

بالشرق الأوسط، فهذا ليس منطقيًّا بل ما هو منطقيٌّ أنّ الروسيَّ والصينيَّ والأمريكيَّ ستشتدُّ صراعهم أكثر، وكلّما اشتد صراعهم زاد التنافس على الشرق الأوسط.

وقد بدأنا نشهد مؤخّرًا حراكًا صينيًّا قويًّا جدًّا في الشرق الأوسط ودول الجوار، فقد بدأت الصين تترجم قوّتها الاقتصاديّة في ميادين السياسة والاستراتيجيا، وشرعت أيضًا بملْء الفراغ الذي تسبّب به ضعف أمريكا المنهكة والمتعبة أو هرمها، مِن خلال تعزيز علاقاتها مع السعوديّة وإيران والإمارات، ورعايتها للاتفاق الإيرانيِّ السعوديِّ، وبدء عمليّات تصفية الحسابات البنكيّة خارج دائرة الدولار مع دول الخليج، وتبنِّي شراكات اقتصاديّة معها بالعملات المحلِّيّة، دون أنْ ننسى إصرار الصين على أنْ تحظى بموطئ قدم في هذه المنطقة، وقد ترجمت الصين هذه النيّة في محاولة إنشاء قاعدة عسكريّة لها في دولة الإمارات المتّحدة.

إنَّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة لن تختار بإرادتها الخروج مِن هذه المنطقة مهما كانت الظروف فحسبُ، بل أيضًا ستحاول بكلّ إمكاناتها المتاحة وقوّتها مِن منع أيّة قوّة منافسة أو عدوّة لها مِن منافستها على الشرق الأوسط؛ لأنّها تدرك جيدًا أهمِّيَّتها الكبيرة لكلِّ مَن يرغب في السيطرة على العالم، سواءً أكانت الصين أم أيَّ قوّة أخرى.

يتّضح بعد هذا البيان المختصر جدًا لتجربة استعماريّة مضت، ولتجربة هيمنة وسيطرة ما تزال قائمة مِن جانب الولايات المتّحدة الأمريكيّة، أنَّ

السيطرة على الشرق الأوسط قلبِ العالم الإسلامي بالتحديد، يُعدُّ مِن أهمِّ الشروط الموضوعيَّة للسيطرة والهيمنة العالميَّة.

وهنا تجدر الإشارة إلى ملاحظة في غاية الأهمِّيَّة، كثرُ الحديث في السنوات الأخيرة حول أهمِّيّة مضيق تايوان، وخطورته بسبب النزاع المجمّد بين الصين وتايوان منذ نصف القرن العشرين إلى اليوم، وتعهّد الولايات المتّحدة الأمريكيّة بحماية تايوان، وقد صدرت بعض الدراسات والنظريّات التي تقول: إنَّ مَن يحكم مضيق تايوان يحكم العالم.

أقول: إنَّ هذا الكلام الوارد عن أهمِّيَّة تايوان وتأثيره العالميّ صحيح، وما أردته مِن التطرّق إلى هذه القضيّة، هو فقط أنْ أقدّم مثلاً على أهميّة جغرافيا معيَّنة، ولكنَّ المفارقة أنّ هذه الأهميّة هي أهمِّيَّة ظرفيّة مؤقّتة ليست دائمة، فقد نجد على مرِّ العصور أنّ جغرافيا معيَّنة غير المثل المذكور توًّا، كانت تحظى بأهميّة كبيرة جدًا، وكانت تشكّل شرطًا موضوعيًّا للعالميّة، ولكنْ ما أريد أنْ أقوله الآن هو أنّ أهمِّيّة مضيق تايوان وتأثيره العالميّ ليس بسبب جغرافيّته بقدْر ما هو مرتبط بظروفه السياسيّة المؤقّتة، بمعنى لو سلّمنا جدلاً أنَّ هذا الصراع القائم في تلك الجغرافيا انتهى بأيِّ شكل مِن الأشكال، هل سيبقى مضيق تايوان يحظى بتلك الأهميّة العالميَّة العظيمة؟ حتمًا لا؛ لأنَّ السبب الذي جعل منه محطّ أنظار العالم انتهى. وهنا نأتي إلى الفكرة المهمّة، وهي أنَّ أهمِّيَّة الشرق الأوسط الاستراتيجيَّة والجيّوبوليتيكيَّة ليست منبثقة مِن أسباب ظرفيّة، مؤقّتة، سياسيّة عابرة، لا

أبدًا؛ بل إنَّ أهمّيتها دائمــة، تاريخيّة، حضاريّة ثابتة كثبات الحضارة البريّة وثبات الدين.

لننظــرْ مثــلاً إلى قارة أوروبــا أو أمريــكا أو أفريقيا، فقد مــرّت بحقبات مختلفــة صعودًا وهبوطًا مِن جهة التأثــير والأهمِّ على مرّ التاريخ البشريِّ، لكنَّ قارئ التاريخ، إذا أراد أنْ يطّلع على تاريخ أيّ قوى عظمى، سيجد أنَّ للشرق الأوســط أهمِّيّة أو دورًا مهمًّا فيها، ســواء مِن ناحية التأثير والهيمنة أم مِن ناحية أنَّها جغرافيا يجب الســيطرة عليهــا. هنا نفهم أنَّه مِن الصعب جــدًا أنْ نجد جغرافيا على هذا الكوكب تحظى بنفس الأهمِّية والقوّة على مــرّ التاريخ البشري كلِّه كما تحظى منطقة الشرق الأوســط؛ لذا فليس مِن المنطقــيِّ أنْ يُقاس ما هو ظرفيٌّ ومؤقّت مــن حيث الأهمِّيَّة والقوّة بما هو دائــمٌ، فالشرق الأوســط كان منذ آدم عليه الســلام ومــازال إلى يومنا هذا الجغرافيــا الأهــمَّ والأقــوى في العالم حتّى لو نافســته على هــذه المكانة جغرافيا أخرى، ولكنَّ الحتمي أنّه ثابت مع تغيُّر التاريخ.

مِــن اللافت للنظر أنَّ الســلوك الرامي إلى الســيطرة والهيمنة مِن جانب فرنســا وبريطانيا مِن جهة، والولايات المتّحــدة الأمريكيّة مِن جهة أخرى، وحتّى إذا أضفنا إلى تلكما التجربتين تجربة الاتحاد الســوفييتي الذي كان يشــغل منطقة إيران وأذربيجان وآســيا الوسطى، هو سلوك مشترك، بمعنى أنّ القوى العظمى تعتمد مبدأ فرّق تســدْ، فتقســم المناطق عرقيًّا، مذهبيًّا، دينيًّا، حتّى تضمن اســتمرار الصراعات الحدوديّة، وتضمن تدخّلها الدائم

لحلِّ النزاعات، ولتضمن أيضًا انشغال أهل المنطقة فيما بينهم. إذًا، هذه هي الطريقة التي اعتمدها المستعمر أو الجهة التي تسعى للهيمنة لرسم الحدود الجغرافيَّة لتقسيم المناطق المتعايشة منذ قدم التاريخ، ويظهر هذا جليًّا مثلاً في قضيّة كشمير بين الهند وباكستان (بريطانيا)، وفي قضيّة ناغورنوا كاراباخ بين أذربيجان وأرمينيا (الاتحاد السوفييتي)، والأكراد مؤخّرًا في العراق وإيران وسوريا وتركيا، والدور الذي تحاول أمريكا تحفيزهم عليه في المنطقة تحت مسمّى حقوق الأقليّات الكرديّة.

إذًا، نستنتج أنّ القوى العظمى على الأقلّ الحديثة منها، وفي سعيها للسيطرة والهيمنة، تقسّم الجغرافيا وتقسّم الشعوب، تفصل الجغرافيا عن بعضها، وهذا ما أبدعت فيه بريطانيا وفرنسا في منطقتنا. ما أريد أنْ أقوله الآن، هو أنَّه إذا كان السعي للهيمنة على المنطقة يستلزم التقسيم والفصل فيما بينها لتطبيق فرّق تسدْ، فإنَّ نشوء قوّة إسلاميّة ابتداءً مِن هذه المنطقة، يستلزم ربط الجغرافيا فيما بينها وكسر الحدود ودمج كلّ الشعوب مع بعضها، وهذا هو جوهر ما سُمِّي حديثًا بالجغرافيا الاتِّصاليّة أو الوظيفيَّة. ومِن المهمِّ جدًّا أنْ نشرح ولو باختصار هذا التفرّع الجيّوبوليتيكيّ الجديد.

● ثالثاً: الجغرافيا الاتِّصاليّة الوظيفيّة:

إنّ غاية الجغرافيا الاتصاليّة تعزيز الروابط بين المجتمعات والثقافات مِن خلال سلاسل التوريد والشبكات بين الدول؛ لنقل الموارد والبضائع

والمال والناس والمعلومات والطاقة والأفكار.

تشـكّل البنية التحتيّة الضخمة أحد أهمِّ أسـباب الاتِّصال الجغرافيّ بين الشـعوب، وهذه البنى التحتيّـة العابرة للحدود السياسـيّة والجغرافيّة هي التي تنظّم العالم -بحسب خانا-، فالعالم الواقعيّ مؤلَّف مِن هذه «الروابط الوظيفيّة»: «الحدود تخبرنا عن الجغرافيا السياسيّة، أمّا البنى التحتيّة تخبرنا مَـن متّصل بمَن عـبر «الجغرافيا الوظيفيّة» التي تصبـح أهمّ مِن الجغرافيا السياسيّة»[1].

يـرى «خانـا» أنَّ «الجيّو-اتِّصاليّـة» تغيّر إدراكنا لما يشـكّل «الأقاليم الطبيعيّة»، فتصبح سلاسـل التوريد والاتِّصاليّة، لا السـيادة والحدود، هما المبدآن الناظمان للإنسانيّة في القرن الحادي والعشرين. ومِن ميزة هـذه الشـبكات هي ما تمثّله مِـن مصالح هائلة مسـتدامة مِن الصعب تفكيكهـا؛ نظرًا لما يبذل فيها مِن موارد واسـتثمارات. يضاف إلى ذلك أنَّ هـذه البنى التحتيَّة العابرة للحدود، لديهـا شرعيّة لكونها قد حظيت بالموافقة الثنائيّـة، وبُنيت بما يجعلها أكثر حقيقيَّـة فيزيائيًّا مِن القانون والدبلوماسيّة[2].

---

1 - (Khanna, Parag. Connectography Mapping the Future of Global Civilization. P.22 - 23).

2 - (Khanna, Parag. Connectography Mapping the Future of Global Civilization. P30).

يكمل «خانا» تحليله بتقصّي التحوّلات في مفهوم القوّة والجيّوبوليتيك وعناصرهما، فعندما نرسم «الجغرافيا الوظيفيّة»، فنحن في الواقع نضع خرائط الروابط (لا الحدود) التي تجري من خلالها ممارسة القوّة وممارسة النفوذ. فالقوّة الأكثر اتِّصاليّة وسيطرة على خطوط النقل والتجارة والبنى التحتيّة العابرة للدول، هي الأكثر نفوذًا في النظام الدوليّ، لا تلك التي تحتلّ الأرض كما في الجيّوبوليتيك التقليديّة. بالتالي، فإنّ أيّ قوّة لن تصبح قوّة عسكريّة كبرى إلّا بعد أنْ تصبح قوّة كبرى في سلاسل التوريد، فتوازن الابتكار يقود توازن القوى وليس العكس. وهذا ما يسمّيه الكاتب «جيوبوليتيك سلاسل التوريد»، حيث السيطرة على هذه السلاسل أهمّ بما لا يُقاس مِن السيطرة على مسارح المعارك التقليديّة[1].

إنَّ بناء شبكات للاتّصال والتواصل بين شعوب هذه المنطقة، سيعزّز المصالح المتبادلة ومِن الإحساس بالهُويَّة المشتركة، ويوسّع دائرة الكتل الاجتماعيّة التي تنتسب إلى هذا المشروع داخل كلّ دولة. يرى «خانا» أنَّ هذا زمن «تحالفات البنى التحتيّة»، إذْ قوّة الروابط تُقاس برسم خرائط الاتِّصاليّة بين مجموعة الدول وحجم التدفّقات على هذه الخطوط. في المحصَّلة، لا يتّصل الأفراد ببعضهم مِن خلال السياسة، بل عن طريق

1 - (Khanna, Parag. Connectography Mapping the Future of Global Civilization. P29).

السوق والإعلام.

إذًا فالجغرافيا الاتِّصاليّة هي اتّفاق نفعيّ يعقد بالتوافق بين دولتين أو أكثر بما يتناسب مع منافعها الاقتصاديّة والتكنولوجيّة والصناعيّة والعلميّة والاجتماعيّة، لتنتج العولمة المفرطة مِن خلال زعزعة مفهوم المواطنيّة القوميّة في مقابل المواطنيّة الاتِّصاليّة، بحيث إنَّ الجماعات المنتمية لدول مختلفة الأكثر اتّصالاً فيما بينها، تحقّق مصداق المواطنة أكثر مِن الجماعات المنتمية إلى الدولة نفسها التي هي الأقلّ اتصالاً وتفاعلاً.

ومِن أهمّ مشاريع الربط الجغرافي التي يُعمل عليها، مبادرة الصين بعنوان «الحزام والطريق» (BRI)[1]؛ إذْ تبنى النظريّة على أنّ إعادة تنظيم العالم الجديد سيتمّ وفقًا لشبكات التجارة والمعلومات، وأنَّ طرق النقل ستعيد ترتيب توازن القوى على المستوى الإقليميّ والعالميّ. وفي مقابل المشروع الصينيّ «الطموح» الرامي إلى تثبيت موطئ قدم على الساحة العالميَّة بين القوى العظمى، يظهر مشروع بقيادة الدول السبع (G7) تحت مسمّى[2]

1 - (Lily Kuo and Niko Kommenda, What is China›s Belt and Road Initiative? https://www.theguardian.com/).

2 - (JOSEPH R. BIDEN JR. Memorandum on the Partnership for Global Infrastructure and Investment. THE WHITE HOUSE.https://www.whitehouse.gov. Elizabeth C. Losos and T. Robert Fetter, FUTURE DEVELOPMENT. Building Bridges? PGII versus BRI

Partnership for Global Infrastructure and Investment (PGII)؛ إذْ تسعى الولايات المتّحدة بالاشتراك مع المملكة المتّحدة وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وكندا واليابان إلى مواجهة المشروع الصينيّ مِن خلال بناء حزامها الجغرافيّ الخاصّ بها[1].

أقول:

بغضّ النظر عن المحرِّك المادّيّ الذي يتجلَّى دائمًا في كلّ ما يصدر عن إنسان الحضارة المادّيّة- إذْ إنَّ المنفعة (اقتصاد، موارد) هي المحرِّك الأوّل للاتصال بين الشعوب والجماعات-. ما نريده مِن هذا البحث هو تسليط الضوء على أهمّيّة التواصل بين الشعوب؛ لما لهذا التواصل مِن فوائد كبيرة على الشعوب؛ لأنّ «الناس أعداء ما جهلوا»، فكلّما زاد الاتصال والتشابك بين الشعوب، خفّت الكراهيّة وتقلّص حجم الفروقات الظاهريّة التي تُستغَلُّ في كثيرٍ من الأحيان لشرعنة الصراعات الهُوياتيّة والحضاريّة.

وبناء عليه، إذا كان للجغرافيا الاتِّصاليّة والوظيفيّة هذا القدر الكبير مِن

Thursday, September 29, 2022. https://www.brookings.edu/).

1 - VALERIO FABBRI, the new infrastructure programme initiated by the G7 – the PGII – going to successfully counter or end the dominance of China's Belt and Road Initiative (BRI)? 302022/08/Is. https://www.geopolitica.info/).

الأهميّة على الجماعات المختلفة، فكيف يمكن لهذه الاتّصاليّة والوظيفيّة أنْ تؤثّر على الارتباط بين الجماعات التي تشترك بثقافة فطريّة موحدّة؟ فإذا كانت النفعيّة المادّيّة محرّكًا يدفع نسبيًّا الجماعات المختلفة ثقافيًّا وهوياتيًّا إلى التقارب ونبذ الخلافات والفروقات لأجل المنفعة والاقتصاد، فإنَّ الثقافة الفطريَّة الموحّدة والهُويَّة المشتركة تملكان من القدرات على تحريك ذاتيّة الإنسان أضعافًا مُضاعفة من المحرّك النفعيّ لأجل الاتّصال بين الجماعات والأمم على الكوكب كلّه. فعندما يكون الاتّصال بين الجماعات لا لأجل المنفعة التي قد تكون في بعض الأحيان عائقًا أمام الاتصال عندما تنتفي المنفعة-، قد تكون المنفعة سياسيّة أحيانًا كالهيمنة مثلاً وليست اقتصاديّة فقط - التي تمثّل الغاية الأساس، إنّما لأجل عمارة الأرض، وتوحيد الإنسانيّة في إطارٍ عالميٍّ واحد خاضع لسيادة واحدة لا غير، سيادة المطلق، عندها يكون هذا المحرّك الذاتيّ الفطريّ دافعًا للاتّصال والتواصل بين النوع الإنسانيّ كلِّه من دون محرّكات ودوافع مادّيّة قد تكون في كثيرٍ من الأحيان عاملاً لعدم الاتصال أو سببًا للهيمنة والإقصاء والتقسيم كنتيجة حتميّة بديهيّة لما سينتجه العقل النفعيّ المادّيّ الاختزاليّ التقسيميّ.

إذًا، إنَّ غاية الجغرافيا الاتّصاليّة والوظيفيّة لا يمكن أنْ تتحقّق إلّا من خلال تهيئة الأسباب الموضوعيَّة، ولا تنحصر الأسباب الموضوعيَّة لاتّصال النوع الإنسانيّ بالمنفعة (السياسيّة والاقتصاديّة والعلميّة والصناعيّة

إلخ...)، إذْ إنَّ هذا النوع الإنسانيّ هجين يجمع بين التراب والروح، بين الأرض والسماء، ولا يمكن للمحرّك المادّيّ حصرًا دون السمائيّ أنْ يشكّل محرّكًا فعّالاً يدفع الإنسان إلى الكدح في سبيل إنجاز غاية معيَّنة؛ لأنَّ هذا المحرّك لكي يكون فعّالاً، يجب أنْ يكون مِن نفس سنخيّة النوع الذي يريد أنْ يؤثّر عليه، أنْ يحرّكه. ولمّا كان الإنسان نوعًا هجينًا، كان لا بدّ مِن المحرّك الذي يدفع بالإنسان نحو التطوّر والتكامل أنْ يتمتّع بالسنخيّة نفسها للنوع المرجوّ التأثير عليه؛ لذا كان لا بدّ مِن المحرّك الذي يدفع بهذا النوع إلى الاتّصال أنْ يتمتّع بطابع سمائيّ غيبيّ على نحوٍ أساسيّ وطابع نفعي مادّيّ. لا بدّ لهذا المحرّك أنْ يكون مرتبطًا بالغيب، بالوحي، والذي يحقّق هذا الشرط الأساسي في المحرّك الذاتي للإنسان، هو تلك المنظومة الأخلاقيّة الإسلاميَّة التي ستقدّم للنوع الإنسانيّ مُجْتَمعًا ثقافة تتناسب وتكوينه الداخليّ وهويّته الفطريّة، ليشكّلا محرّكًا فعّالاً للنوع الإنسانيّ الذي تفرض عليه السماء عمارة الأرض تحت السيادة الإلهيّة؛ ليكون هذا النوع قد أنجح المشروع الإلهيّ بعمارته للأرض بعد أنْ تكامل ليكون خليفةً لله على الأرض.

وقد يدور في أذهان البعض أنّه لماذا تمّ الاختيار الإلهيّ لهذه البقعة الجغرافيّة لأهمّ حركات الأنبياء؟ ولماذا دائمًا تسعى كلّ القوى العظمى إلى السيطرة على محور العالم؟ ولماذا ستنطلق الحركة التغيّريّة العالميَّة للإمام المهديِّ سلام الله عليه مِن هذه الجغرافيا؟

وقـد يطرح بعضهم أيضًا أنّه أليس مِن الأفضل أنْ تنطلق هذه الحركة العالميَّـة التغيريّة مِن جغرافيا أكثر تحضّرًا وأكثر تقدّمًا وتطوّرًا؟ وبغضّ النظر عـن معيار التحضّر والتطوّر الذي على أساسـه يُنسـب التحضّر والتقـدّم إلى حضـارة دون الأخـرى، وبغـضّ النظر عن وعي إنسـان ومجتمع تلك الجماعات «المتحضّرة»، إلّا أنَّ ما يهمّنا مِن هذا البحث، كلُّ مـا هو مرتبط حصرًا بالجيوبوليتيك. ومِن الواضح أنّ الدولة سـواءً أكانـت ناشـئة حديثًـا أم قديمة العهد تتأثّـر على نحو كبـير بمقوّماتها الجيوبوليتيكيَّة؛ فروسيا أو سويسرا مثلاً تتمتّعان بمقوّمات جيوبوليتيكيّة سيِّئة، ممَّا يُضعف مِن قوّتها ومِن قدراتها وتأثيرها السياسيِّ والاقتصاديِّ أيضًـا، في حين تتمتَّـع أمريكا مثلاً بمقوّمـات جيوبوليتيكيَّة قويّة جدًا، وهـو مـا يعزّز مِن قـدرة تأثيرها وقوّتهـا. ومِن هنا نفهـم أنّ المقوّمات الجيوبوليتيكيَّـة تؤدِّي دورًا مهمًّا جـدًا في تعزيز قوّة الدولة. وقد اتّضح لنا، بناءً على الشرح المذكور فيما سبق، أنَّ العالم الإسلاميَّ كلاًّ، العالم الإسـلاميّ وحدة جغرافيّة واحدة، يتمتّع بأقـوى مقوِّمات جيّوبوليتيكيَّة في الكوكب.

إنَّ نظريـة عـودة المخلِّـص العالميّ، تُطـرح مِن جانب عـدد كبير من الديانـات والمذاهب، سـواءً أفي الشرق الأوسـط أمْ في الهند والصين أو غيرهـما. وإذا نظرنـا إلى قضيّة عودة المخلِّص مِن منظـور جيّوبوليتيكيٍّ، يتّضـح لنا أنَّ المخلِّص الوحيد الذي سـيتمتَّع بالمقوّمات الجيّوبوليتيكيَّة

الأقوى، هو المخلِّص الذي سيخرج مِن منطقة الشرق الأوسط. وإذا نظرنا في الروايات الواردة في الموروث الشيعيِّ تحديدًا، سنجد أنَّ المخلِّص الذي تؤمن به الشيعة الإماميّة محمّد ابن الحسن المهديّ، عجَّل الله فرجه الشريف، سيخرج مِن عمق العالم الإسلامي «مكّة»، وسيتّجه بعد ظهوره الشريف مباشرةً إلى العراق، ليسيطر في بداية حركته على الشرق الأوسط المتمثّل في شبه الجزيرة العربيّة، والعراق، وبلاد الشام, بالإضافة إلى إيران وربمّا مصر وتركيا، وهذا ما سيتيح له، عجَّل الله فرجه الشريف، أنْ يسيطر على مفصل قارات العالم القديم، وسيتيح له سلام الله عليه أيضًا أنْ يسيطر على سائر العالم الإسلامي انطلاقًا مِن سيطرته على الشرق الأوسط، ومَن يسيطر على العالم الإسلامي يسيطر على العالم، وإليكم القاعدة الجيوبوليتيكيَّة الآتية:

- مَنْ يحكم قلب الأمة الإسلاميَّة (المحور الأوّل والثاني) يحكم العالم الإسلاميّ.
- ومَنْ يحكم العالم الإسلاميّ يحكم جزيرة العالم.
- ومَنْ يحكم جزيرة العالم يحكم العالم.

إنَّ متابع الحركة الجغرافيَّة للإمام المهديِّ (عج) بعد ظهوره، سيجد أنَّ حركته، سلام الله عليه، تنقسم إلى مرحلتين، المرحلة الأولى: هي السيطرة على العالم الإسلاميِّ، والمرحلة الثانية: هي السيطرة على العالم، والمرحلتان ليستا بمعزل عن بعضهما بعضًا، بل هناك تكامل بينهما، وما

نقصده بالتكامل هو أنَّ السيطرة على العالم الإسلاميِّ ستشلُّ الغرب على نحوٍ كبير، وستشلّ الاقتصاد العالميّ، وسيهدّد الأمن الغذاء العالميّ، وأمن الطاقة العالميّ، وهذا ما سيُخضع العالم بأسره للدولة الإسلاميَّة المهدويَّة؛ لأنَّ العالم أجمع، والغرب تحديدًا، سيكون في موقع الضعيف والمحتاج للعالم الإسلاميِّ الأقوى المسيطر على أهمّ مضائق العالم، والمُسطَّحات المائيّة، وهذا ما سيشلّ الاقتصاد والملاحة البحريّة، وسيُخضع العالم أجمع، وخصوصًا الغرب، للجهة الأقوى؛ أي الدولة الإسلاميَّة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار طبيعة الهُويَّة العالميَّة والشاملة المقدَّمة من الإمام، عجّل الله فرجه الشريف، وطبيعة الحضارة التي تتمحور حول الإنسان وتسعى إلى صناعته وبنائه ليكدح لله سبحانه وتعالى، وهذا ما سيعطي جاذبيّة كبيرة لهذه الدولة القويّة والمسيطرة، فالقوّة ستمنع الطواغيت مِن الاعتداء، لا بل ستخضعهم، أمّا النموذج الحضاريُّ الإنسانيُّ المقدَّم مِن الإمام، سلام الله عليه، فسيكون كفيلاً بأنْ يجذب كلَّ إنسان؛ لأنَّ نموذج الإمام يتماشى مع الفطرة الإنسانيّة، وهذا ما سيلائم الإنسان الهندي والصيني والروسي والأوروبي واللاتيني والأفريقي وغيرهم، فالقوّة لا تواجه إلّا بالقوّة، ولطالما استخدمت القوّة لتحريف الحقيقة ومنع الناس مِن الانجذاب إلى الحقّ المتمثّل في الأنبياء والأوصياء، وهنا تأتي القوّة لتمنع الطواغيت مِن منع الناس مِن الانجذاب إلى الحقّ وتشويه الحقيقة.

وموضوع الإنسان وفطرته ليسا بعيدين عن الجيّوبوليتيك، فمن الجليّ

أنَّ التراب مكوّن أساسيّ للإنسان، وبناءً عليه هل يمكن النظر إلى هذا النوع الإنسانيّ الهجين على أنَّه عنصر مهمّ في مجال الجيوبوليتيك؟ وهذه النقطة بحاجة إلى بعض المعالجة، فأقول:

يعدُّ فيدال دي لابلانش أنّ العلاقة بين التربة والإنسان موسومة في فرنسا بالطابع المميّز للقِدم والتواصل (...)، فكثيراً ما يستوقف انتباهنا أنَّ الناس في بلادنا يعيشون في الأماكن نفسها منذ أقدم العصور، فالينابيع والصخور الكلسيّة اجتذبت البشر منذ البداية كأماكن ملائمة للعيش والاحتماء. فالإنسان عندنا تلميذ التربة الوفيّ، ودراسة التربة تساعد على توضيح طباع السكّان وأمزجتهم وأولويّاتهم[1].

ويرى دي لابلانش أنّ العلماء الجيّوبوليتيكيِّيْن أمثال راتسيل وأتباعه يبالغون على نحوٍ واضح في تقويم العامل الطبيعيّ؛ إذ يعدّونه عاملاً محدِّدًا، مِن دون إعطاء الإنسان أيّ قيمة جيّوبوليتيكيّة؛ ذلك أنّ الإنسان في رأي لابلانش يُعدّ بدوره «عاملاً جغرافيًّا مهمًّا» إلاّ أنّه فوق ذلك «مميَّز بالمبادرة»، فهو ليس جزءًا مِن الديكور فقط، بل هو الممثّل الأهمّ في المسرحيَّة[2].

وهذا الانتقاد للتهويل المتعاظم للعامل المكانيّ عند راتسيل، دفع لابلانش إلى طرح نظريّة جيّوبوليتيكيّة خاصّة هي «البوسيبيلزم» - وتعني

1 - Vidal de la Blanche. Panneau Géographique de la France..

٢ - ألكسندر دوغين، أسس الجيوبوليتيكا مستقبل روسيا الجيوبوليتيكي، ص ١٠٢.

الممكـن -. وللتاريخ السـياسيّ، انطلاقًا من هذه النظريّـة، أفقان: مكانيّ (جغـرافيّ) وزمـانيّ (تاريخـيّ). ينعكس العامـل الجغرافيّ في الوسـط المحيـط، والتاريخـيّ في الإنسـان نفسـه (صاحب المبـادرة). وقد رأى لابلانش أنّ خطأ الجيّوبوليتيكيِّين الألمان يعود إلى كونهم يعدّون السطح الأرضيّ عاملاً حاسـمًا في التاريخ السـياسيّ للدول. وبهذا يُنتقص برأي لابلانش مِن عاملين: الحريّة الإنسـانيّة، وعامل التاريخيّة. أمّا هو، فيقترح النظر إلى الوضع المكانيّ الجغرافيّ على أنّه «احتمال» أو «إمكانيّة» يمكن أنْ تفعّل لتغدو عاملاً سياسيًّا حقيقيًّا، ويمكن ألّا تفعَّل، وهذا ما يرتبط إلى حدود بعيدة بالعامل الذاتيّ بالإنسان، ساكن ذلك المكان[1].

إذًا، فصناعة المحتوى الداخلي الإنسانيّ - كعامل مؤثّر على حركة التاريخ - يُلقي ظلاله ليس على البعد الأخلاقي والقانوني والاجتماعيّ للدولة فحسب، بل تؤثّر هذه الصناعة على البعد الاستراتيجيّ والجيّوبوليتيكي أيضًا، لذلك كانت هذه الصناعة للمحتوى الإنسانيّ من خلال المنظومة الأخلاقيّة المُثلى المقدّمة مِن الإمام المهديِّ، سلام الله عليه، ضامنة للحرّية الإنسانيّة الفطريّة والحافظة للإرادة الحرّة، وتقدّم إنسانًا حُرًا- لا خاضعًا لغرائزه ومنفعته - يحرّك التاريخ والجغرافيا بغاياته وإرادته، ليكون هذا الإنسان الركن الاستراتيجيَّ الأهمّ للدولة. وهذا ما يتناسب تمامًا مع

١ - ألكسندر دوغين، أسس الجيوبوليتيكا مستقبل روسيا الجيوبوليتيكي، ص ١٠٣.

الطبيعة الترابطيّة للنظام الكونيّ، إذْ لدى الإنسان الأسباب الموضوعيَّة الكامنة في فطرته التي تخوّله أنْ يكون محور هذا الكون ﴿**إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنّه كان ظلومًا جهولا**﴾ [سورة الأحزاب: 72].

ومِن هنا نفهم أنَّ الذي يقدِّم النموذج الأكثر ملاءمةً للإنسان والفطرة الإنسانيَّة، هو الذي سيحظى بالقوّة الجيوبوليتيكيَّة الأقوى، وهذا ما سيضع الدولة الإسلاميَّة المهدويَّة في الصدارة العالميَّة.

تعدُّ المقوِّمات الجيّوبوليتيكيَّة مِن أهمّ الأسباب الموضوعيَّة لقيام دولة قويّة مهيمنة وعالميّة، وبما أنَّ المخلِّص الذي سيظهر لا بدّ أنْ يحظى بالأسباب الموضوعيَّة لتأسيس دولة عالميَّة، فلا بدّ للمخلِّص أنْ ينطلق مِن قلب العالم الإسلاميِّ، وعليه الاختيار الإلهيّ لبدء مشروع إقامة الدولة العالميَّة يتماشى والأسباب الموضوعيَّة الجيّوبوليتيكيَّة التي تحتاجها الدولة؛ لذا كان الاختيار الإلهيّ لجغرافيا الشرق الأوسط، ليحتضن عمق العالم الإسلامي انطلاق المشروع العالميّ، ولا يمكن لأيِّ جغرافيا أخرى أنْ تحتضن مشروعًا بهذا الحجم، كما هي حال مكّة والمدينة والنجف وكربلاء.

إنّ الاصطفاء الإلهيّ لا ينحصر فقط في الإنسان، بل أيضًا يشمل الجغرافيا، بمعنى أنَّه كما أنَّ الله سبحانه وتعالى يصطفي إنسانًا معيّنًا ليحمّله أمانة أو رسالة، ليوكل إليه إنجاز مُهمَّة، يصطفي أيضًا جغرافيا

لتحتضن الإنسـان المُصطفى، أو المشروع والمهمَّـة الموكلة إليه مِن الله سبحانه وتعالى، وقد اصطفى تعالى الشرق الأوسط، العراق على الأخصّ، وتحديدًا الكوفة منه لتكون القلب الجغرافيَّ لمشروع الاستخلاف الإلهيّ للنوع الإنسانيِّ على وجه الأرض. إنَّ مِن أهمّ صفات العلم هي الكاشفيَّة؛ أي إنَّ العلم يكشف قضيّة مبهمة، وقد حاولنا في هذه الدراسة المتواضعة أنْ نكشـف المميّزات التي تتمتّع بها هذه الجغرافيا لندرك أهميَّتها وقيمتها حتّى حظيت بهذا الاهتمام الإلهيّ الذي خوّلها، بعد أنْ حقّقت الأسـباب الموضوعيَّة، أن تُصطفى. ولهذه الأسـباب وربمّا لغيرها، سـينطلق الإمام المهديُّ، سلام الله عليه، بمشروعه العالميّ مِن الحجاز ومِن ثَـمَّ العراق، ليحكم بعدها العالم أجمعَ مِن بيته في الكوفة.

إذًا، فالانسـان بما هـو كائن يُعـدّ مِن أهـمّ المقـدّرات الجيّوبوليتيكيّة للدولة، وهذا ما سـيفتح لنا البحث في المجال الإنساني مِن زاوية أخلاقيّة جيّوبوليتيكيّة، أو ما سنطلق عليه اسم الجيّوبوليتيك الأخلاقي.

الفصل الرابع:
جيّوبوليتيك الأخلاق: العالميّة بحاجة لإنسان عالمي ومجتمع عالمي

● أولًا: محورية الإنسان في صراع الحق والباطل:

إنّنا نؤمن أنّ حركة التاريخ البشريّ مرتبطة بشكل أساسيّ بالصراع بين الحقّ والباطل، بين الأنبياء والرسل والأولياء والأئمّة في مواجهة الطواغيت والظلمة والأباطرة. وأحد أهمّ معالم هذا الصراع وإحدى زوايا الرؤى، الصراع على صناعة الإنسان، كلّ حسب فلسفته وغايته.

إنَّ الصراع الأساسي يكمن في جعل الناس يختارون النموذج الذي يتناسب مع ذاتيّتهم، ما يلزم هذا الصراع العمل على إعادة صياغة الذاتيّة الإنسانيّة ومحاولة تغيير الفطرة الإنسانيّة بما يتناسب مع طبيعة النموذج المقدّم، والذي بطبيعة الحال يشكّل المخدّر الفعّال للسلطة التي ستحقّق ما تطمح إليه مِن أطماع في ظلّ تخدير إنسانها بذاك النموذج.

فالصراع بين الحقّ والباطل ليس صراعًا عسكريًّا، سلطويًّا، إنّما هذا ما يطفو على السطح، ما نراه ظاهريًّا هما هذان الشكلان مِن الصراع، أمّا الصراع الحقيقيّ والأساسيّ، الصراع الذي يحرّك ويُنشئ الصراعات الأخرى، هو الصراع على تغيير ذاتيّة الإنسان، حرف فطرته السليمة، سحب كلّ ما هو قيميّ وأخلاقيّ، لما تشكّله القيم والأخلاق مِن أطر وقيود تسيطر على الغريزة والمنفعة، وبذلك يصبح الإنسان الفارغ مِن كلّ ما هو قيميّ وأخلاقيّ، كائنًا لا يملك الإرادة والاختيار أمام ما تمليه عليه شهوته -وهذا ما أنتجته الحضارة المادّيّة تحت عنوان الإنسان الحرّ-، والعمل على تحجيم رؤيته الاجتماعيّة والكونيّة في حدود الواقع الموجود

المحدود الذي يتحكّم به الطغاة.

إنَّ تجاوز الانسان والمجتمع حدود هذا الواقع، يعني انهيار السلطة الفرعونيّة، فالأمر لا يتعلّق بمجرّد صناعة إنسان راضخ، بل صناعة مثل أعلى ورسم مساره التكامليّ الذي يُنتج مثل هذا الإنسان الراضخ والعاجز عن التفكير بالحريّة التي تقضي على السلطة الفرعونيّة، وتقديم رؤية اجتماعيّة وكونيّة للإنسان يكتفي بحدود الواقع، وتحول دون رفضه للنموذج المقدّم مِن السلطة للمحافظة عليها.

والطريقة المُثلى لتحقيق ما تقدّم ذكره، يكون في إفراغ الإنسان مِن القيم الإنسانيّة، مِن الأخلاق، وتعزيز كلّ ما هو مادّيّ، كلّ ما هو مرتبط بالقوّة، مِن خلال الترهيب والترغيب، ما يعزّز مِن هيمنة المادّة والقوّة والمنفعة التي تتناقض مع كلّ ما هو قيميّ وأخلاقيّ، وأنَّ هذا الإقصاء لكلّ ما هو أخلاقيّ وقيميّ، وهيمنة كلّ ما هو مادّيّ وغرائزيّ ونفعي، هو الضامن لاختيار الإنسان للنموذج المقدّم مِن السلطة الفرعونيّة، وأنَّ هذا الاختيار هو أيضًا الضامن للحفاظ على الحكم الطاغوتي بعد نجاح النموذج في المهمّة التي وُجد لأجلها، ألا وهي تخدير الشعوب وإلهاؤها في المنافع المادّيّة والغرائز الحيوانيّة.

فالذي ينظر إلى الحركة البشريّة على الساحة التاريخيّة مِن زاوية الصراع الأساسيّ بين الحقّ والباطل، الصراع المتمثّل في صناعة المثل الأعلى الوهميّ وإخضاع الإنسان له مِن خلال تقديم الحاكم نفسه إلهًا، أو أنْ

يقدّم الحاكم إلهًا مرتبطًا به زورًا، أو أنْ يقدّم الحاكم -أو السلطة الحاكمة- الهوى كإلهٍ للناس. وكلّ تلك الآلهة تخدم مصالح السلطة مِن خلال صناعة الإنسان الخاضع للنموذج الذي يفرضه هذا المثل، هذا الخضوع يضمن استدامة الحكم والاستبداد واستفادة فئة قليلة-الأوليغارشيّة- دون الأغلبيّة مِن الشعب مهما تغيّر الشكل الظاهري للحكم وتبدّلت الأسماء وتناوبت على السلطة.

وكان في مقابل هذا الخط، خطٌ آخر تصدّى له الأنبياء بكلّ قوّة، ولو كان الناس على قدرٍ كافٍ مِن الحريّة للخروج مِن متاهة النموذج الغرائزيّ الذي يقدّمه الفراعنة، لما بقي الأنبياء ضعفاء - مِن المنظور المادّيّ وعدد الأنصار- أمام الفراعنة والطواغيت، وما الذي يجعل مِن نبيٍّ ما يحظى بهذا القدر مِن الخذلان سوى عدم وضوح الرؤية نتيجة لتحريف الحقائق وتشويهها وتغيير ذاتيّة الإنسان لتصبح متماشية ومنسجمة مع ما تقدّمه السلطة الفرعونيّة، التي تتنكّر لكلّ ما يقدّمه الحقّ المتمثّل بالأنبياء والأولياء الصالحين.

وهذا الكلام ليس بالتاريخيّ فقط، فالبشريّة بطابعها المعرفيّ والفلسفيّ المشترك قد ضمنت نموذجها المادّيّ النفعي، وقامت بذلك بتغيير الزمان والجغرافيا والأيديولوجيا والدين-الدين الطقوسي فارغ الأخلاق والقيم- إلّا أنَّ النموذج هو نفسه، والإنسان المرجو صناعته هو نفسه الخاضع، منزوع الإرادة الحرّة والاختيار الحقيقيّين.

● **ثانيًا: التضليل الحديث:**

وأمّـا حديثًا في هـذا العصر، فأصبحـت المنظومة الماديّـة أكثر تعقيدًا وإبداعًا في سـعيها لتغيـير ذاتيّة الإنسـان وفطرته وأكثر سـيطرةً وتحكّمًا بالإنسان بالشكل الذي يجعل خروجه مِن هذه المتاهة أمرًا بالغ الصعوبة.

ولمّـا كان عمل المنظومـة الماديّة، الغربيّة خصوصًـا، قائمًا على تعزيز الهيمنـة وحصر عمل العقـل بالجانب الأيسر مِن الدمـاغ بالجنبة الماديّة النفعيّـة الاختزاليّـة، ولمّـا كان العقل المفكّر أسـاس المحتـوى الفكري الذي ستنشـأ عنه الإرادة ثمّ السلوك الإنسـانيّ، كان إشغال العقل المفكّر والمحتـوى الفكـري وتوجيهه لـكلّ ما هو مـاديّ وغرائـزي ونفعي، هو الضامن للسلوك الإنسانيّ الماديّ والغرائزيّ والنفعيّ.

فالمنظومة الماديّة تعمل على إشـغال العقل المفكّر والمحتوى الفكريّ واسـتدراج الإرادة للقيام بسـلوكيّات ما كانت لتكون متاحة ومقبولة لديها لولا النجاح في إشـغال الفكـر واسـتدراج الإرادة إلى المكان المرفوض لديها مسبقًا، وعندما تصبح القضايا المرفوضة متاحة في العقل والمحتوى الفكـريّ، يصبـح لديها احتمال للظهـور الخارجيّ مِن خلال سـلوكيّات الإنسان، وبقدر ما تستطيع الإرادة الحرّة أنْ تسيطر وتضع قيودًا على كلّ ما هو غير أخلاقيّ، تحظى القضيّة غير الأخلاقيّة بنسـبتها للظهور الخارجيّ سلوكيًّا.

فلـو لم تكن القضايا المرفوضة فطريًّا (أخلاقيًّا) موجودة في الفكر، لما

وصل الصراع الذاتيّ في النفس إلى مرحلة الإرادة، المرحلة التي يحتدّ بها الصراع النفسيّ بين قوّة دافعة غرائزيّة تحارب الإرادة الحرّة المرتبطة بالقوّة الجاذبة الفطريّة، وعندها تكون احتماليّة ظهور السلوك الخارجيّ منوطة بمدى سيطرة إحدى القوّتين الداخليّتين في نفس الإنسان. فإذا كانت نفس الإنسان قد هيمنت عليها القوّة الدافعة للغريزة والشهوة والمنفعة، تصبح الإرادة عاجزة عن الوقوف أمام هذا السيل الغرائزيّ العنيف، وعندها لا يكون أيّ معنى للإرادة باعتبارها نقطة تحقيق (Check Point) أخيرة قبل الفعل وظهور السلوك، بعد أنْ أصبحت الغرائز والشهوة والمنفعة مُهيمنة على العقل والمحتوى الفكريّ، فما نفع الدواء بعد انتشار السرطان في كامل أعضاء الجسم؟! والذي يجعل مِن سيطرة الغرائز والشهوة والمنفعة على الفكر أمرًا مُتاحًا، لا بل راجحًا بشكل كبير، هو هيمنة الدماغ الأيسر على العقل، هيمنة الجنبة التي تحصر القيم بالمنفعة.

وإذا هيمنت على النفس الإنسانيّة القوّة الجاذبة الفطريّة، تكون الإرادة الحرّة فعّالة ومؤثّرة وقادرة على العمل بعد توفّر مجالها الحيويّ الذي لا يعيق عملها. والذي يجعل مِن سيطرة القوّة الجاذبة الفطريّة على النفس أمرًا ممكنًا، هو هيمنة الدماغ الأيمن والوسطيّة على العقل.

فيجب أنْ لا ننظر إلى موضوع السيطرة على الغرائز والشهوة والحدّ مِن المنفعة الخارجة عن الأخلاق مِن زاوية واحدة، وهي الإرادة بأنْ لا يفعل الإنسان ما هو غير أخلاقي وقيمي؛ لأنَّ الإرادة هي نقطة التحقيق الأخيرة

التي تقف بين الفعل واللا فعل، وماذا باستطاعة الإرادة فعله والتحكّم به أمام هيمنة غرائزيّة على كلّ ما هو غير أخلاقي في الدماغ؟ بل يجب النظر إلى الموضوع مِن ناحية أوّلية أساسيّة تتمحور حول ماهية عمل الدماغ، والطبيعة النفسيّة الداخليّة للإنسان الذي أصبح خاضعًا للطاغوت ومسيرًا.

إنَّ الذي ينتصر بالدرجة الأولى، هو الذي ينجح في السيطرة على إرادة الإنسان، وبالتالي يمهّد الطريق أمام فعّالية الإرادة مِن عدمها، فإمّا يقصيها ويقضي على حرّيّتها وفعّاليتها وعملها، وإمّا يعزّز مِن عملها وسيطرتها على كلّ ما هو فكريّ، لتكون نقطة تحقيق فعّالة تفصل ما بين الفكري والسلوكي. وإن كانت الهيمنة للدماغ الأيسر النفعي الاختزاليّ، التي تتمثّل في فعّاليّة الإرادة وقدرتها على السيطرة ومنع كلّ ما هو غير أخلاقيّ وقيمي، أمرًا في غاية الصعوبة والتعقيد، وأمّا إذا كانت الغلبة للوسطيّة بين الدماغين الذي يضمنه الدماغ الأيمن، عندها تُهيئ للإرادة مجالات مناسبة للسيطرة والتحكّم بحريّة بكلّ ما هو أخلاقيّ وقيميّ وفطريّ.

إذًا، احتماليّة نجاح الإرادة الحرّة في ظلّ سيطرة الدماغ الأيسر وما ينتج عنه مِن هيمنة نفعيّة غرائزيّة على العقل، تكون صعبة جدًا وشاقّة للنفس، أمّا نجاح الإرادة في ظلّ سيطرة الدماغ الأيمن وما ينتج عنه مِن وسطيّة في ظلّ هيمنة القيم كلّ القيم على العقل، تكون بنسبة عالية كبيرة جدًا، حيث إنّ الإرادة الحرّة ستتفعل في أجواء مساعدة جدًّا للاختيار بحريّة بين الفعل واللا فعل.

إذًا، قبل البحث في نقطة التحقيق الأخيرة، علينا العمل على نقطة التحقيق الأولى، وهي المنظومة التي تساعد هذه الإرادة على العمل بحريّة، العمل على النموذج المُقدَّم للبشريّة الذي يعزّز مِن هيمنة الدماغ الأيمن والوسطيّة. فمِن الصعب جدًا لهذه الإرادة أنْ تمنع كلّ السلوكات غير الأخلاقيّة في ظلّ المنظومة المادّيّة الغربيّة التي نجحت في تقديم نموذج جذّاب ظاهريًّا يسلب الحريّة مِن إرادة الإنسان واختياره، وبذلك تضمن المنظومة المادّيّة السلوك الإنسانيّ المادّيّ والغرائزيّ ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾.

هـذه المنظومة باتـت اليوم متوغّلـة في كلّ حياتنا، وبتنا نعيشـها بكلّ محفّزاتها ومؤثّراتها مِن موقع سـلبيّ مُتلق مِن دون أنْ ندرك خطورة الأمر، ويكفي أنْ ننظر في واقع مواقع التواصل الاجتماعيّ والإدمان الذي تسـبّبه والمؤثرات المادّيّة النفعيّة والغرائزية الجنسيّة التي باتت تُعرض علينا كيفما أدرنا وجوهنا، وأصبح الحديث عـن النجاح وتحقيق الذات، يقتصر على النجاح في جمع الثروة، وأصبحت النساء مِن حيث لا يدرين سلعةً غرائزيّةً جنسـيّة تعرض بها مفاتنها في التواصل الاجتماعـيّ أو في الحياة الواقعيّة وطبعًـا مِن منطلق «الحريّة»، ولا أدري كيف تكون هذه الحريّة في التعرّي والإثارة التي لم يمتز بها النوع الإنسـانيّ! فقد تصدّت المرأة مِن حيث لا

تـدري لأخطر مهمّة، وهي تخدير عقل الرجل وتجميد المجتمع، لتتحكّم بالرجل المؤثرات الجنسـيّة التي تقدّمها المرأة في المجتمع، ويصبح أسير هذه اللذّة التي ستتيه بها مُخيلته دون الاكتفاء والرضا.

إنَّ أيّ تقدّم وتطوّر سـيكون للإنسـان والمجتمع، حينـما تكون الحريّة مصدرًا للانحطاط الغرائزيّ الشـهوانيّ، حيث تُمنع المرأة بحجّة التخلّف والرجعيّـة مِن صناعـة مجتمعها الصغير وحماية المجتمع بالسـتر والعفّة والأمومة والدور النسـويّ الذي يتناسـب مع فطرتها وتكوينها الرقيق-كما يتناسـب دور الرجل مع فطرته وتكوينه-، لتفسـد الرجل الذي سيسـتنزف تفكيره وستتركّز اهتماماته في متاهة الغريزة والشهوة.

● ثالثًا: أهمية الجهاد الأكبر:

إنَّ ما يُطلق عليه إسلاميًّا تسمية جهاد النفس (الجهاد الأكبر) يُصوّر كأنّه في مرحلـة متأخّرة جـدًّا، أي في مرحلة الفعل أو اللافعـل، مرحلة الرقابة الأخيرة التي تسـبق العمل والسلوك. وهنا تكمن الخطورة؛ إذ إنَّ المنظومة الماديّـة نجحت في اسـتدراج الإنسـان إلى الصراع الـذي غالبًا ما يكون لصالح الغرائز والمنفعة؛ وذلك لأنّ حالة الصراع الذي يعيشـه الإنسان في محاولته للسـيطرة على الفعـل، تكون في مرحلة قد ارتبـط تحقيق الفعل النفعـيّ الغرائزيّ بحاجات بيولوجيّة (إفرازات هرمونيّة) يحتاجها الجسـم للشـعور بالنشـوة والاكتفـاء والرضا، وهذا بسـبب هيمنـة الدماغ الأيسر

وحـصر الرضـا والاكتفاء بما يقدّمه هـذا الجانب مِن لـذّة ومتعة ومنفعة، وهذا ما سـيدفع الإنسان إلى القيام بسـلوكيّات ما كانت لتكون مقبولة في ظلّ الوسطيّة التي توفّر مجالاً حيويًّا لعمل الإرادة الحرّة.

لكـنَّ حقيقة جهـاد النفس كما نعتقد يبدأ مِن حلقـة الصراع الأولى، ألا وهـي اختيار النموذج الصحيح المتناسـب مـع الفطرة السـليمة، اختيار المنظومة التي يجب على الإنسـان أنْ يمتثل لها، والتي ستنتج عقلاً مفكّرًا ومحتوًى فكريًّا يتناسبان مع الإرادة الحرّة والفطرة الإنسانيّة السليمة.

كما تكمن خطورة المنظومـة المادّيّة في قدرتها على إقناع العقل بالقيام بأعمال وسـلوكيّات غير أخلاقيّة سـتقدّم نشـوة وسـعادة مؤقتة تزول بعد لحظات محدودة جدًا، في حين يظهر أثر هذا السـلوك الذي سيبقى تبعاته أكثر بكثير مِن لحظة السـعادة. كما يعمل العقل النفعي الغرائزي في سعيه لإقناع الإنسـان للقيام بعمل معيّن على إغفال وتهميش المشـاعر البعديّة للعمل وآثاره، فاسـتدراج الإرادة مِن قِبل العقل النفعيّ بالاسـتناد إلى قوّة الخيـال والحاجة البيولوجيّة الهرمونيّة التي تؤَمِّن اللذة والسـعادة المؤقّتة الناجمة عن الفعل، يُضلّل إرادة الإنسـان ويزيّن لها القبيح لتتنازل عمّا هو أخلاقيّ للوصول إلى اللذّة المرجوّة، والتي ستشكّل صدمة نفسيّة وروحيّة للنفـس بعد الوصول إليها وزوال لذّتها، وذلك لأنّها: أوّلاً: لم تحقّق اللذّة المرجوّة والمؤمّلة-كما وُعدت مِن قبل الخيال والعقل النفعيّ- بعد زوالها السريـع، وثانيًا لحالة الإحباط الكبير الذي سيشـعر به الإنسـان بعد قيامه

بمـا هو غير أخلاقيّ وغير قيميّ، كـما يعمل على التعديل الهرموني الذي دائمًا ما يسـعى على المحافظة على الوسطيّة في الذهن مِن خلال التأقلم اللذائـذيّ (Hedonic adaptation)، هذا المبـدأ الذي يعمل على العودة بسرعـة إلى مسـتوى ثابت نسـبيًّا مِن السـعادة على الرغم مـن الأحداث الإيجابيّة أو السلبيّة الكبرى أو التغيّرات الحياتيّة .

إذًا، إنَّ الرضوخ للمنظومة المادّيّة التي تقلّص مِن فعّالية وتأثير الإرادة الحرّة، يؤدّي بالإنسان إلى العجز عن السيطرة على سلوكه، وهذا ما يسبّب التناقض التكوينيّ بين ما ينتج عن أفعال الإنسان وسلوكاته مِن آثار تضرّ نفسيًّا وعقليًّا بالإنسان، فجموح الإنسان الغرائزيّ -نتيجة لأثر المنظومة وعجز الإرادة الحرّة- يجعل منه يتناقض مع الطبيعة التكوينيّة الوسطيّة للذهن والنفس اللذين لا يجنحان نحو المتعة واللذّة المفرطة تكوينيًّا -أو إلى الحزن الشديد أيضًا-، إنّما إلى الوسطيّة والاعتدال، وهذه الوسطيّة والاعتدال التي يحتاجها الإنسان بحكم التكوين والفطرة، لا يمكن أنْ تتحقّق إلّا مِن خلال منظومة أخلاقيّة تتماشى مع التكوين والفطرة الإنسانيّة، وهذا ما تضمنه المنظومة الأخلاقيّة القرآنيّة ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾، أي إنَّ الأمة الوسط هي الأمّة الشهيدة التي تضمن اختيار الناس للحقّ بإرادتها الحرّة، والإنسان الكامل هو ضامن الأمّة الوسط.

هذا هو الفرق بين الإنسان العالميّ التي سعت الحضارة المادّيّة لصناعته

مِـن خلال منظومة نفعيّـة غرائزيّة تعمل على إماتـة الإرادة الحرّة وتخدير الشعوب وتضليلهم لتحقّق بذلك الأوليغارشـيّة العالميّة هيمنتها العالميّة وتزيد مِن منافعها على حسـاب الشعوب والأمم المُضلّلة، وفكرة العالميّة المادّيّة الإنسـانيّة أراها أعجز مِن أنْ تقدّم خطوة أولى لمن يريد اسـتغلال الإنسان العالميّ والمجتمع العالميّ لإقامة حكومته العالميّة.

أمّا ما تقدّمه المنظومة الأخلاقيّة الإسـلاميّة، فسيحقّق هذا الطرح أسبابه الموضوعيّـة عندما تنوجد الأمّة الوسـط التي سـتضمن اختيار الإنسـانيّة جمعاء للحقّ بإرادتها الحرّة، ولا تتحقّق الأمة الوسـط إلّا بعودة الإنسـان الكامل الذي سيضمن اختيار أمّته الوسط للحقّ المطلق.

● رابعًا: الحرب المعرفية أحدث أدوات الباطل:

ما أريد أنْ أقوله في هذا البحث، إنَّ مسار السيطرة والهيمنة قد يتّخذ في بعض الأحيان مسارًا مختلفًا عمّا قد يتصوّره البعض مِن خلال القوّة الخشنة والسـيطرة الجغرافيّة، بل يتخذ مسارًا أخطر وأكثر تأثيرًا، وهو السيطرة على الإنسـان الذي يشـغل الجغرافيا، وبعد السـيطرة على هذا الإنسان تصبح السـيطرة على الجغرافيا متحقّقة بالفعـل لا بالقوّة، بعد ضمان الجهة التي تسـيطر على الإنسـان في جغرافيا معيّنة سـلوكه بما يتناسـب مـع آمالها وتطلّعاتها التي سـينفّذها، وبذلك سـيحقّق غايتها مِن السيطرة بالقوّة التي استبدلتها بالسيطرة الفعليّة بعد نجاحها بالتحكّم بكلّ سلوكيّات الإنسان.

وهـذا الـكلام الذي عرضناه للتـوّ ليس بحثًـا تحليليًّا ولا إنشـائيًّا؛ لأنَّ الـذي يتابع ما ينتجه الغـرب -أمريكا والناتو تحديدًا- سـيجد المصاديق الحسـيّة التي تثبت صحّة هذا الـرأي؛ لأنَّ أمريكا والناتـو عمدا مع بداية الألفيّة الجديدة إلى التأسـيس لنوع جديد مِن الحروب والتي تختلف عن الحروب التقليديّة، بحيث تعمل حرب ما بعد الحداثة بشكل دقيق وموجّه للسيطرة على الإنسان والتحكّم بسلوكه.

هنـا تتّضح أكثر أهميّـة الأخلاق والمنظومـة الأخلاقيّة الإسـلاميّة، إذا مـا أخذنا بعين الاعتبار أحدث ما توصّل إليه إنسـان مـا بعد الحداثة، مِن صياغته لأحدث أنماط الحرب، سـنجد أنفسـنا أمام حـرب ما بعد حديثة تحت مسـمّى الحرب المعرفيّة (Cognitive warfare)، والتي تهدف إلى تغيير السلوك وبالتبعيّة تغيير المبادئ والقيم.

إنَّ الحرب والعسكر بذاتهما ليسا الغاية النهائيّة، بل إنَّ السيطرة والهيمنة هما الغاية، بمعنى أنَّ الوسـائل المتّخذة لتحقيق الغايات المرجوّة، لم تعد بالضرورة محصورة بالعسـكر أو بالقوّة الخشـنة، إنَّمـا الأصل هو تحقيق الهيمنة والسيطرة بكلّ الوسائل المتاحة، ومِن أهمّ وأخطر وأحدث الوسائل التـي عمد الأمريـكي والناتو إلى الاسـتفادة منها، هي الحـرب المعرفيّة، بحيث يُعتبر العقل البشري سـاحة الحرب المعرفيّة، ممّا أدّى إلى عسـكرة المجتمعات وعسكرة كلّ إنسان، بعد أنَّ جعلوا مِن العقل البشري، تحديدًا وبشكل مباشر، الساحة الحقيقيّة للحرب.

في أحد التعاريف لـ «الحرب المعرفيّة» في المواقع المؤسسيّة العسكريّة للدول الرئيسة، مثل الولايات المتّحدة والمملكة المتّحدة وفرنسا وألمانيا وروسيا والصين والمنظّمات الدوليّة الرئيسة، مثل حلف شمال الأطلسي الموجودة على موقع Innovation Hub للدراسات الجارية المتعلّقة بـ «Cognitive Warfare Project» ، من بينها قراءة "The Cognitive Warfare Concept» بقلم برنارد كلافيري وفرانسوا دو كلوزيل اللذين يتحدّثان بوضوح عن «المجال السادس» وإعطاء التعريف الآتي للحرب الإدراكيّة:

«الحرب الإدراكيّة هي فنّ استخدام الأدوات التكنولوجيّة لتغيير إدراك أهداف البشر، الذين غالبًا ما يكونون غير مدركين لأيّ محاولة مِن هذا القبيل - مثل أولئك المكلّفين بمكافحة عواقبها أو التقليل منها أو إدارتها، والذين تكون ردود أفعالهم المؤسسيّة والبيروقراطيّة بطيئة جدًا أو غير كافٍ».

في الدراسة نفسها يقال إنَّ مصطلح الحرب المعرفيّة تمّ استخدام هذا المعنى لأوّل مرّة في الولايات المتّحدة في عام 2017. في ذلك العام، تحدّث الجنرال الأمريكي فنسنت آر ستيوارت، مدير وكالة استخبارات الدفاع، خلال مؤتمر عن الحروب الحديثة للحروب المعرفيّة حيث تعمل السيطرة على المعلومات على التلاعب بالعدو لوضعها بكلمات بسيطة: «... هو معرفة ما يجب القيام به ومتى تفعل ذلك ... وإذا لم تتحكّم

في المعلومـات أو تعطّلت دورة صنع القرار لديـك، أو تدهورت قدرتك المعرفيّة، فلن تتمكّن مِن الفوز أو القتال بفعاليّة».

بالنسـبة لمؤلّفي الدراسة، فإنَّ الحرب المعرفيّة ممكنة مِن خلال تحقيق أقصى اسـتفادة مِن التقاطع بين منطقتين «... PSYOPS يعني العمليّات النفسـيّة (القوّة الناعمة)» و«العمليات السيبرانيّة» (الدفاع السيبراني) التي تهدف إلى إضعاف أو تدمير أصول المعلومات الماديّة مِن جهة أخرى».

بينما أصرّت الدراسة المدعومة مِن الناتو على أنَّ الكثير مِن أبحاثها حول الحـرب الإدراكيّة، مصمّمة لأغراض دفاعيّة، فقد أقرّت أيضًا بأنَّ التحالف يطوّر تكتيكات هجوميّة، قائلة: «غالبًا ما يكون الإنسـان هو نقطة الضعف الرئيسـة، ويجب الاعتراف بها لحماية رأس المـال البشري لحلف الناتو، ولكنْ أيضًا ليتمكّن مِن الاستفادة مِن نقاط ضعف الخصوم».

وفي كشف مخيف، قال التقرير صراحة إنَّ «الهدف مِن الحرب المعرفيّة، هو إلحاق الضرر بالمجتمعات وليس بالجيوش فقط».

ومع وجود عدد كبير مِن السكّان المدنيين في مرمى الناتو، أكّد التقرير أنَّ الجيوش الغربيّة يجب أنْ تعمل عن كثب مع الأوسـاط الأكاديميّة لتسليح العلوم الاجتماعيّة والعلوم الإنسانيّة، ومساعدة الحلف على تطوير قدراته الحربيّة المعرفيّة.

ووصفت الدراسـة هذه الظاهرة بـ«عسكرة علم الدماغ». ولكنْ يبدو مِن الواضح أنَّ تطوير حلف الناتو للحرب الإدراكيّة، سيؤدّي إلى عسكرة جميع

جوانب المجتمع البشري وعلم النفس، بدءاً مِن العلاقات الاجتماعيّة الأكثر حميميّة إلى العقل نفسه.

وذكرت صحيفة أوتاوا سيتيزن في أيلول الماضي أنَّ قيادة العمليّات المشتركة للجيش الكندي، استغلّت جائحة كوفيد 19- لشنّ حرب إعلاميّة ضدّ سكّانها المحليين، واختبرت تكتيكات الدعاية ضدّ المدنيين الكنديين.

أيضًا تشير التقارير الداخليّة التي يرعاها الناتو إلى أنَّ هذا الكشف يضرب تقنيات الحرب غير التقليديّة الجديدة التي تستخدمها الجيوش الغربيّة في جميع أنحاء العالم.

وكتبت الحكومة الكنديّة في بيانها الرسمي حول التحدّي: «تسعى الحرب المعرفيّة إلى تغيير ليس فقط ما يفكّر فيه الناس، ولكنْ أيضًا كيفيّة تصرّفهم». «وتنطوي الهجمات في المجال المعرفي على تكامل المعلومات السيبرانيّة والمعلومات المضلّلة وقدرات الهندسة الاجتماعيّة».

وتابع البيان الصحفي لأوتاوا: «تجعل الحرب الإدراكيّة العقل ساحة معركة ومجالاً متنازعاً عليه، وهدفها هو زرع التنافر، والتحريض على الروايات المتضاربة، واستقطاب الرأي، وتطرّف الجماعات. يمكن أنْ تحفّز الحرب المعرفيّة الناس على التصرّف بطرق يمكن أنْ تعطّل أو تفكّك مجتمعًا متماسكًا بطريقة أخرى».

في عام 2020، كلّف دو كلوزل، وهو أحد قادة الناتو الكبار، بإجراء دراسة لمدّة ستّة أشهر حول الحرب المعرفيّة. لخّص دو كلوزل بحثه

في اللجنة في شـهر تشريـن الأوّل، وبدأ ملاحظاته مشـيراً إلى أنَّ الحرب المعرفيّة «في الوقت الحالي هي واحدة مِن أهمّ الموضوعات بالنسـبة إلى حلف شـمال الأطلسي»، و«أصبحت مصطلحًا متكرّرًا في المصطلحات العسكريّة في السنوات الأخيرة».

قـال دو كلوزيـل: «الحـرب المعرفيّـة هي مفهـوم جديد يبـدأ في مجال المعلومـات، وهو نوع مِن الحرب الهجينة». «يبدأ الأمر مِن شـبكة الإنترنت في هاتفـك المحمـول؛ حيث تتدفّـق المعلومات، والتي هـي وقود الحرب الإدراكيّة، لكنّها تتجاوز كونها مجرّد معلومات فقط، فهي حرب قائمة بذاتها».

أوضـح دو كلوزل أنَّ الحرب المعرفيّـة تتداخل مع شركات التكنولوجيا الكبيرة والمراقبة الجماعيّة؛ لأنَّ «الأمر كلّه يتعلّق بالاسـتفادة مِن البيانات الضخمـة». «نحن ننتج البيانـات في كلّ مكان نذهب إليه. كلّ دقيقة، كلّ ثانية ندخل شبكة الإنترنت. ومِن السهل للغاية الاستفادة مِن هذه البيانات مِـن أجل التعرّف عليك بشـكل أفضل، واسـتخدام تلـك المعرفة لتغيير طريقة تفكيرك».

كما عرّف دو كلوزل الحرب المعرفيّة بأنَّها «فنّ استخدام التقنيات لتغيير مفاهيم الأهداف البشريّة». وأشار إلى أنَّ هذه التقنيات تتضمّن تكنولوجيا النانـو، والتكنولوجيا الحيويّة، وتكنولوجيا المعلومات، والعلوم المعرفيّة. جميعها معًا «لتصنع نوعاً مِن الخليط الخطير جداً الذي يمكن أنْ يزيد مِن التلاعب بالدماغ»، كما قال.

تابـع دو كوزيل: «مِن المهمّ أنْ نفهم أنَّها لعبة تتعلّق بإدراكنا ومفاهيمنا، والطريقـة التي يعالج بهـا دماغنا المعلومات ويحولّهـا إلى معرفة، وليس مجرّد لعبة تعتمد على المعلومات أو الجوانب النفسـيّة لأدمغتنا. إنَّه ليس مجـرّد إجراء ضدّ مـا نفكّر فيه، ولكنّه أيضًا إجراء ضـدّ الطريقة التي نفكّر فيها، والطريقة التـي نعالج بها المعلومات ونحوّلهـا إلى معرفة». «بعبارة أخرى، لأنَّ الحرب المعرفيّة ليسـت مجرّد كلمة أخرى، اسـم آخر لحرب المعلومات. إنَّها حرب على معالجنا الشخصي، أي على عقولنا».

يشـدّد الناتو عـلى أهميّة هـذا النوع مِن الحـرب للجيش؛ لأنّـه يتمتّع بالإمكانيّات مِن خلال تطوير أسلحة جديدة وطرق لإلحاق الضرر بالدماغ، ولديـه القدرة على إشراك علم الأعصاب والتكنولوجيا في العديد والعديد مِن الأساليب المختلفة للتأثير على البيئة البشريّة... لأنّكم تعلمون جميعاً أنّه مِن السهل جدًا تحويل التكنولوجيا المدنيّة إلى تقنيّة عسكريّة.

أمّا بالنسـبة إلى مَنْ يمكن أنْ يكونوا أهدافًا للحرب الإدراكيّة، بيقول دو كوزيـل: «الحـرب المعرفيّة لها امتـداد عالمي، بدءاً بالفـرد وحتّى الدول والمنظّـمات متعدّدة الجنسـيّات». «فمجال عملهـا عالمي، ويهدف إلى السيطرة على الإنسان، المدني والعسكري على حد سواء».

وأشار إلى أنَّ القطاع الخاصّ لديه مصلحة ماليّة في تطوير أبحاث الحرب المعرفيّة: «تشير الاستثمارات العالميّة الضخمة في علوم الأعصاب إلى أنَّ المجال المعرفي سيكون على الأرجح أحد ساحات القتال في المستقبل»،

ويؤكّد الناتو على أنَّ تطوّر الحرب المعرفيّة يحوّل الصراع العسكري تمامًا بإضافة البُعد المعرفي.

وفي تقرير آخر عن اللواء الأمريكي روبرت إتش سكيلز، الذي لخّص الفلسفة القتاليّة الجديدة لحلف الناتو مِن خلال تعريف النصر بشكل أكبر مِن حيث الاستيلاء على الأرضيّة النفسيّة والثقافيّة، بدلاً مِن المنطقة الجغرافيّة. وإذا لم تستطع القوّة الحركيّة هزيمة العدو، فإنَّ علم النفس والعلوم السلوكيّة والاجتماعيّة ذات الصلة، ستملأ الفراغ وستكون جميع التخصّصات الأكاديميّة متورّطة في الحرب المعرفيّة.

يعتبر الناتو أنَّ الحرب المعرفيّة هي العنصر المفقود الذي يسمح بالانتقال مِن النصر العسكري في ساحة المعركة إلى النجاح السياسي الدائم. وقد يكون المجال البشري هو المجال الحاسم؛ حيث تحقّق العمليّات متعدّدة المجالات تأثير القائد. يمكن أنْ تعطي المجالات الخمسة الأولى انتصارات تكتيكيّة وعمليّة؛ فقط المجال البشري يمكنه تحقيق النصر النهائي والكامل.

إذًا، في ختام هذا البحث يثبت لنا أنَّ البحث الأخلاقي الإنساني، والجهاد الأكبر والسيطرة على الإنسان، يتّخذ في عصر ما بعد الحداثة طابعًا استراتيجيًّا جيّوبوليتيكيًّا يصبّ في عمق مشروع السيطرة والهيمنة العالميّة؛ لأنَّ السيطرة على الإنسان وعلى المجتمعات سبب أسياسي في السيطرة على الجغرافيا، والذي باستطاعته صناعة الإنسان بما يتناسب مع

مشروعه، سيتمكّن مِن السيطرة على بقع جغرافيّة أكبر.

ونحن نعلم علم اليقين أنَّ المنظومة الأخلاقيّة الإسلاميّة المقدّمة مِن المعصوم، هي الأكمل والأكثر تناسبًا وفطرة الإنسان والأكثر عالميّة وملائمةً للنوع الإنساني، وعليه فإنَّه وحده الإنسان الكامل المهدي المنتظر عجّل الله فرجه مَنْ يمتلك الأسباب الموضوعيّة لصناعة الإنسان العالمي وبالتبعيّة المجتمع العالمي، وبذلك وحده مَنْ سيضمن السيطرة على كلّ الجغرافيا ليثبت حكمه العالمي ويُنهي التاريخ البشري؛ لأنَّ البشريّة الخارجة عن مسار المعصوم هي أعجز مِن فهم الإنسان ومِن صناعته، وأعجز أيضًا مِن صناعة هويّة عالميّة توحّد البشريّة جمعاء. وكلّ تجربة تسعى إلى السيطرة على الإنسان مهما اختلفت أساليبها وتجدّدت تقنياتها، محكومٌ عليها بالفشل نتيجة لضعف مقدّماتها الأوليّة للنجاح؛ كونها تجهل المكوّن الأساسي في الإنسان المتمثّل بالروح والفطرة، وهذا ما يضمن أنَّ النجاح في صناعة الإنسان العالمي وتحقيق الجغرافيا العالميّة، لن يكون إلّا مِن خلال الإنسان الكامل.

الفصل الخامس:
لماذا الحكومة العالميّة؟

بعد أنْ بحثنا في الأسباب الموضوعيّة للسيطرة العالميّة مِن الزاوية الجيّوبوليتيكيّة، نريد الآن مِن هذا الفصل الأخير أنْ نبحث في أصل قضيّة الحكومة العالميّة، هل هي حقًّا الخلاص للبشريّة؟ بمعنى هل هي حقًّا السبيل الوحيد لحلّ كلّ المشكلات البشريّة ولماذا قد يحتاجها الإنسان الحديث؟ وهل مِن الصحيح أنْ تيأس البشريّة مِن تحقيق العدل العالميّ وتصل إلى الانسداد الحضاريّ؟ وهل أصبحت فكرة العدالة في زمان الماديّة المفرطة وهمًا مِن نسج خيال المتفائلين الرومانسيّين؟ لأنَّ الواقعيّة في ظلّ طغيان الظلم نتيجة لهيمنة القوّة، تفرض على كلّ إنسان اعتبار العدل وهمًا.

أقول: نعم، يجب على البشريّة أنْ تيأس مِن نفسها وأنْ تتيقّن أنَّها وصلت إلى الانسداد الحضاري، حيث إنّه بعد أنْ تمّ فصل هذه النفس عن السماء، ظنَّ هذا الإنسان أنّه باستطاعته إقامة العدل العالميّ، وهذا لهدفٍ سامٍ عجز عنه الأنبياء أجمعهم، فاليأس مِن الذات الإنسانيّة هو حاصل طبيعي، وخصوصًا بعد الطلاق مع كلّ ما هو سمائي.

أمّا ما لا يجب على الإنسان أنْ ييأس بشأنه، فهو إقامة العدل؛ لأنَّ نهاية عالم الدنيا دون تحقيق العدل العالميّ والنهائي على الكوكب، يُثبت صدق الدهشة الكبيرة التي عبرّ عنها النوع الملائكي بعد أنْ عرفوا بحقيقة المشروع الإلهي على الأرض بجعل آدم خليفةً لله على الأرض- ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً * قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا**

مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ * قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ -، والدهشة هنا هي دهشة نوعيّة، فلم يعهد الملائكة على نوع هجين قد تجلّت فيه بعض الصفات الإلهيّة التي لم يعهد وجودها في أيّ نوعٍ غيره هو سبحانه وتعالى، وقد عبرّوا عن دهشتهم لله بتساؤلهم، ومفاده أنّه كيف يستطيع هذا النوع الهجين -التراب والروح الإلهية- تحقيق هذه الغاية - أي خلافة الله على الأرض- ونحن نرى أنَّ مصدر استحالة تحقيق هذا الهدف المرجو، هو هذا المكوِّن الهجين الذي أوجد في ذاتيّته. وقد أراد خالق هذا الكون أنْ يتحقّق هدف الخلافة مِن النوع الإنسانيّ له على الأرض مِن خلال شروط معيّنة، أهمّها الاختيار الحرّ مِن الإنسان وكدحه لله وتكامله الاختياري، فيما رأى النوع الملائكي أنَّ هذا الاختيار الحرّ للإنسان، هو مصدر الإفساد والظلم وسفك الدماء.

وقد أجاب الله على هذه الدهشة الملائكيّة، بأنّه يعلم عاقبة الأمور وخواتيمها، فهو المحيط بما خلق، فإذا كانت نهاية عالم الدنيا بالطريقة التي تصوّرها النوع الملائكي، فبذلك يكون النظام الذي أوجده الله لتحقيق الغاية التي لأجلها أوجد الوجود مِن العدم، فيها خلل ونقص، وهذا يُنافي التدبير الإلهيّ الحكيم، وهذا يُعزّز مِن فرضيّة العبثيّة عند الخالق، والله منزّه عن العبث، فهذا مُحال، فالله مُدبرٌ حكيمٌ عالمٌ محيطٌ بما خلق، قيوم لا يفوته شيءٌ مِن الأشياء.

فالنظام الكوني السببيّ الذي أوجده واجد الأشياء مِن العدم، هذا

النظام بأسبابه الموضوعيّة والتسلسلات العلميّة، لا يتناقض مع المحتوى الإنسـانيّ وطريقة عمله الاختياري. فقد بـدأ التاريخ البشريّ ببعثة الأنبياء الذين بذلوا جهودًا في سبيل تعزيز إنسانيّة الإنسان وتطويره وتعزيز ارتباطه بالله والالتزام بشريعة السماء، وقد تطوّرت وتكاملت شريعة السماء لتصل في الختام إلى قمّة الكمال التي نجدها في الإسـلام الدين الأزلي والنهائي للإنسانيّة. وبذلك وصل المسار التراكميّ للدين الإلهيّ إلى أكمل وأوسع وأشـمل منظومة أخلاقيّـة، لتكون هذه المنظومـة الأخلاقيّة التي تراكمت وتطـوّرت وتكاملت منذ بدايـة البشريّة وصولاً إلى بعثة الإنسـان الأكمل على الساحة التاريخيّة محمّد رسول الله، النبيّ الخاتم صلّى الله عليه وآله وسلّم.

لتكون هذه المنظومة الأخلاقيّة التي تتناسـب مـع طبيعة النظام الكوني والتسلسلات العلميّة، وبالنتيجة لا تتعارض مع الطريقة التي أراد الله إنجاح مشروعـه بها حصرًا مِن خلال اختيار الإنسـان للحقّ وتكامله الاختياري، وليـس مِن خلال القهر والإعجاز. وليكون هذا الهدف هدفًا موضوعيًّا، لا بـدّ مِن تهيئة أسـباب هذا الهدف، فكانت المنظومـة الأخلاقيّة التي لديها القابليّة والأسباب الموضوعيّة للدخول إلى ذاتيّة الإنسان ليصدّقها ويؤمن بهـا ولتصنع محتواه الداخلي، هي أهمّ الأسـباب التي تجعل مِن الاختيار الإنسـانيّ للحـقّ نتيجة لصناعة محتـواه، وتكامله الاختيـاريّ، وبالنتيجة تحقيق الغاية الأساس التي لأجلها أوجد الوجود.

مِن هنا كانت المنظومة الأخلاقيّة الإسلاميّة القرآنيّة هي الخريطة أو الدستور، والتي بالتصديق بها تتحقّق الغاية الأساس لخلق النوع الإنسانيّ الآدمي. ولمّا كانت هذه الغاية الكبرى قابلة للتحقّق بعد إيماننا بحتميّة تحقّق هذا الهدف موضوعيًّا لعدم عبثيّة واجد الوجود وحكمته، كان بالتبعيّة إيماننا بتحقيق الغاية الصغرى محلّ موضوعيّة أيضًا؛ إذ إنَّ الغاية الكبرى تحتوي وتتضمّن -أو ينتج عنها- الغاية الصغرى المتمثّلة بإقامة العدل العالميّ.

وحيث إنَّ الغاية الكبرى للخلق تكامل النوع الإنسانيّ ونجاحه في الاختبار في ظلّ حتميّة هذا النجاح في خاتمة المسار البشريّ في عالم الدنيا، ولأنّ الفشل يعني العبثيّة عند واجد الوجود ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**﴾، ولو كان الأمر -أي التكامل الاختياري- مُحالاً كما يدّعي بعض الناس، فلماذا أوجد الله نظامًا خاتمته الوصول إلى غاية غير قابلة التحقّق؟ وإذا صحّ هذا الادّعاء، عندها أليس حريًّا به أنْ يصل إلى هذه الغاية بطريقة أخرى؛ أي بنظام كوني آخر؟ وإذا كانت هذه الغاية أصلاً غير قابلة التحقّق في ظلّ طبيعة تكوين النوع الإنسانيّ، فلماذا أوجد الله هذا النوع بهذا الشكل بما يتناقض مع الغاية المرجوّة؟ وإذا لم يكن مِن سبيل لتحقيق هذه الغاية بأيّ طريقة ممكنة، فلماذا أصلاً يُوجِد الله الحكيم المدبّر مشروعًا محكومًا عليه بالفشل، وهو يعلم نتيجته مُسبقًا؟ ولأجل كلّ ما قيل للتوّ؛ لا يمكن لأيّ عقلٍ منطقيٍّ

إلّا أنْ يؤمن بأنَّ هذا الإله الحكيم إذا أوجد نظامًا، أوجد مشروعًا، لو لم يعلم بنجاح المشروع خِتامًا، فلماذا بالأساس يوجد مشروعًا فاشلاً؟ فهذا مُحال.

الإنسان الذي يتمتّع بشيء مِن الحكمة والتدبير، مِن المحال أنْ يدخل مثلاً في تجارة هو يعلم مِن البداية أنَّ نهايتها خسارة وفشل، فكيف بالله الذي هو مصدر الحكمة والتدبير! وإن لم يضمن الخالق الحكيم للإنسان صحّة اختياره مِن خلال إيجاد منظومة أخلاقيّة -تصنع محتواه الداخلي، وتوجّهه- فلماذا أوجد فيه قدرة الاختيار الخاطئ (الكفر والنكران التي يضمنها الشيطان) كما أوجد قدرة الاختيار الصحيح (الإيمان والتوحيد)؟ ألعذابه دون استحقاقه له وُجد في هذا الاختبار؟ وإن لم تكن المنظومة الأخلاقيّة الإسلاميّة نافذة وتحوي كلّ الشروط الموضوعيّة لتضمن حسن اختيار الإنسان، فأين بديلها الأكمل الذي يضمن ذلك؟ إذ مِن المحال لخالقٍ عادلٍ رحمانٍ رحيمٍ أنْ يعذّب إنسانًا دون إيجادِ ضامنٍ مُسبق في عالمِ الاختبارِ يضمنُ حسنَ التحكّم والاختيار لقدراتٍ قد أوجدها الخالق فيه ليثبت العبد لمولاه صدق عبوديّته له بالسيطرة والتحكّم على غرائزه والتسليم للعبوديّة لله لا لهواه.

وقد وضع واجد الوجود كلّ الأسباب الموضوعيّة في المنظومة الأخلاقيّة ليكون تحقيق الغاية المرجوّة ضمن شروطه أمرًا موضوعيًّا علميًّا واقعيًّا، وليس أمرًا خياليًّا طوباويًّا ووهمًا ينتج الفشل والعجز واليأس؛ لذلك قدّم

الله في منظومته الأخلاقيّة الواردة في القرآن كِتَابًا ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، وفي سيرة الإنسان الكامل الذي هو مصداق القرآن، التجربة التي تُثبت قابليّة تحقّق وظهور النظريّة في العالم الواقعيّ الحقيقيّ، كلّ ما هو ممكن لتحقيق الهدف النهائيّ.

فنجد في المنظومة الأخلاقيّة الإلهية القرآنيّة، المعيار القرآنيّ الأصيل الذي يحوي كلّ القيم الحميدة، ليستطيع الإنسان مِن خلال هذا المعيار مِن تقويم ما هو عادل وما هو غير عادل، ما هو أخلاقي وما هو غير أخلاقي، ما هو طغيان وظلم وما هو ليس كذلك، وكلّ هذا لا يكون بالاستناد إلى قيمة واحدة دون الأخريات، إنّما مِن خلال الاعتماد على وحدة قيميّة شاملة وموحّدة تحوي كلّ القيم دون أيّ اختزال.

كما نجد أنَّ هذه المنظومة الأخلاقيّة قد وضعت حدودًا وأُطُرًا واضحةً أمام الإنسان والمجتمع والدولة، وحتّى أمام تعامل الإنسان مع المادّة، لتحفظ كرامة الإنسان وتقف عائقًا أمامه يمنعه مِن الطغيان والفساد. ولا نقصد في هذا المقام بالعدل الجنبة السياسيّة أو الاقتصاديّة أو الاجتماعيّة فقط، كما عرّفتها العدالة الاختزاليّة، وإنَّما نقصد العدل في تعامل الإنسان مع ذاتيّته المؤتمن عليها، المُستخلف عليها، فهل حفظ هذا الإنسان الأمانة التي ائتمنه الله عليها بدءًا مِن نفسه وذاتيّته، أم أنّه عبث فيها وغيّر فطرته، وعبث في غريزته وشهوته وملّكها على نفسه؟ أي إنَّ الله ائتمنه على نفسه ثمّ هو تخلّى عن هذه الأمانة لصالح غريزته وشهوته ليكون إلهه

هواه، ليستمتع ببضع سنين يعيشها في الدنيا مُتعمّدًا نسيان مقصده وحياته الحقيقية الأزليّة. هذه الجنبة هي الأهمّ والأساس عندما نتكلّم عن العدالة؛ لأنّه كلّ ما سيطفو لاحقًا على السطح مِن سلوكيّات تتناقض مع العدل مِن قبل هذا الإنسان، إنّما ناشئة مِن عدم عدالته في ذاتيّته، ومِن عجزه عن حفظ الأمانة المشروطة بالعدالة، بالتقوى، بالسيطرة على الغريزة والشهوة، فأصل الاختبار والقضيّة أنَّ هناك دوافع ومحرّكات غريزيّة حيوانيّة يجب عليك لكي تُثبت حُسن أمانتك وعدالتك أنْ تتحكّم بها، وعندما يخون الإنسان أمانة الله برضوخه لهواه، عندها ستظهر هذه الخيانة، هذا الظلم الموجود في ذاتيّته مع تعاملاته مع أخيه الإنسان، مع المجتمع، مع الدولة، وحتّى مع المادّة.

إذًا، لكي تتحقّق العدالة يجب على المنظومة الأخلاقيّة أنْ تبدأ مِن عدالة الإنسان مع ذاتيّته، ومِن عدالته في حفظ الأمانة، وعندما تعجز الأخلاق مِن فعل ذلك بحكم النقص الهيكليّ في بنيتها الأساسيّة، ستعجز عن الحلّ والقضاء على كلّ أشكال الظلم والطغيان واللاعدالة التي يمارسها الإنسان بحقّ أخيه الإنسان (مهما كان مختلفًا) أو مجتمعه (أو أيّ مجتمع لأيّ آخر)، أو دولته (أو أيّ دولة لأيّ أخرى)، أو الحيوانات والمادّة؛ لأنّ كلّ ما سيظهر مِن سلوكيّات وتصرّفات، ما هو إلّا نتيجة للمحتوى الداخلي الإنسانيّ وطبيعة أداء الإنسان مع الأمانة المؤتمن عليها مِن خالقه.

ولأجل ذلك، كان مِن الضروريّ جدًّا توفّر منظومة أخلاقيّة تتماهى

وتتماشى مع ذاتيّة الإنسان، مع محتواه الداخليّ، حاجاته الفطريّة، حاجته للارتباط بالمطلق، وحاجته لمعرفة القانون التفصيليّ والمسار الدقيق الذي يجب أنْ يمتثل إليه في سبيل حسن أدائه للأمانة الموكلة إليه مِن خالقه.

يضمن الدين الحافز والمحرّك للإنسان لكي يطبّق ما يمليه عليه كلّ ما هو أخلاقيّ، لأنّه سيضمن له خاتمته السعيدة في مقصده النهائيّ، وفي حياته الأبديّة، فالله يعدّ الإنسان الذي تنازل عن الانصياع لشهوته وغريزته وخيانة الأمانة، والذي تنازل عن بعض الأمور الدنيويّة لأجل أخيه الإنسان أو مجتمعه أو دولته، وعلى حساب حبّه لذاته، في مقابل تعويضه بأضعاف مضاعفة في عالم الحقيقة الأبديّة، وعندها يكون تنازله عمّا تطلبه ذاته، عمّا يحقّق له المنفعة واللذّة والسعادة، هو في صلب حبّه لذاته؛ لأنّ هذا التنازل هو الذي سيضمن له الحياة السعيدة والخاتمة الحسنة في عالم الحقيقة. كما أنَّ الدين يستطيع أنْ يجعل تطبيق الإنسان للمنظومة الأخلاقيّة، أولى مِن السعي وراء المنفعة واللذّة؛ لأنّه عندما يدرك الحقيقة، وانطلاقًا مِن حبّه لذاته، سيُبدي المنفعة الدائمة الأبديّة التي ستتمتّع بها نفسه في العالم الآخر على حساب المنفعة الزائلة التي سينتهي أثرها بعد لحظات قليلة مِن تحقّقها، وما سيلي هذا الشعور باللذة إمّا مِن ندم وعار- إذا كانت خارج الأمور الفطرية الأخلاقيّة- وإمّا حاجته مرّة أخرى لهذه اللذّة؛ ما سيدخله في دوّامة لذائذيّة تحبطه وتعزّز مِن يأسه.

وتضمن الشريعة الإسلاميّة بقوانينها المُفصّلة والدقيقة النابعة مِن الأخلاق

ما يخدم صالح الإنسان والمجتمع والدولة، والضمانة القانونية التي تحمي المفهوم وتدخله في العالم الواقعيّ ودائرة التطبيق. وبذلك لا يقتصر الأخلاقي في الإسلام على التنظير في الإطار الإنسانيّ النظري والنفسي والطقوسي والاجتماعيّ، بل يتجاوزه ليصل إلى دائرة القوانين والتشريعات والقضاء.

وأخيرًا، يضمن الإنسان الكامل تقديم وشرح المنظومة الأخلاقيّة في الإطار النظريّ، كما يضمن تنفيذها وتطبيقها في الإطار العملي التجريبي، كما هي شاملة وكاملة غير مُجزّأة وغير مُختزلة؛ لأنّ ماهية الإنسان الكامل لديها القابليّة والأسباب الموضوعيّة التي تحول دون اختزال المنظومة الأخلاقيّة بحسب فهمه لها، أو حدّها بحسب محدوديّته، فلكونه إنسانًا كاملاً، فهو يتميّز بطابع معرفيّ ذاتيّ (لا ضديّ)، وهذا يعني أيضًا أنّ طابعه المعرفيّ شامل (لا اختزالي)، وهذا يجعله قادرًا على تقديم منظومة أخلاقيّة شاملة لكلّ القيم، أو بكلمة أخرى لا يصدر عنه إلّا ما هو شامل بحكم هيكله المعرفيّ مؤسّس المعارف الأوليّة والثانويّة، والتي يستحيل بحكم تلك البنية أنْ يتضمّنها ما هو اختزالي.

فالإنسان الكامل بحكم طابعه المعرفي الشامل، والذي هو مُحيط بالمنظومة الأخلاقيّة الإسلاميّة الكاملة، سيقدّم أطروحة حول العدالة بطريقة عالميّة وشاملة لكلّ القيم، وليس هذا وحسب، بل يستطيع أنْ يطبّقها -كونها لا تقتصر في مجال التنظير-، وكونهُ هو ضامن المنظومة الأخلاقيّة، لأنّه:

■ محيط بشكل كامل بالموجود الإنسانيّ، وهذه الإحاطة تستلزم إحاطة بالنظام الحاكم بهذا الموجود؛ لأنّ إرادة الخلق هي ذاتها إرادة النظام.

■ محيط بشكل كامل ومطلق بذاتيّة الإنسان، بتكوينه، حاجاته الفطريّة، ومحيط بالطريق التي يعمل بها دماغه بشقّيه الأيمن والأيسر.

■ محيط بشكل كامل بكلّ ما يؤثّر بهذا الإنسان، عقليًّا، ونفسيًّا، وعاطفيًّا، وغرائزيًا، وفكريًا، وسلوكيًا؛ أي محيط بالنظام الحاكم أو المؤثّر على هذا النوع.

لذا يستطيع هذا الإنسان الكامل الذي لديه الإمكانات والأسباب التكوينيّة أنْ يُقدّم ويُطبّق المنظومة الأخلاقيّة الإسلاميّة الكاملة المُطلقة مِن دون أن يحدّها بحدّيته، أو يختزلها، ليحافظ على شموليّة المنظومة الأخلاقيّة وكمالها، وهي المنظومة التي حوت كلّ القيم دون استثناء، وبناءً على هذه المنظومة الأخلاقيّة الإسلاميّة القرآنيّة المطلقة المُقدّمة حصرًا مِن الإنسان الكامل، تُقدّم وتُطبّق أطروحة كاملة وشاملة حول العدالة العالميّة.

عندها لا يمكن لليأس أنْ يدخل إلى قلب الإنسان المرتبط بذاك الإله الحكيم المُدبر، وبذاك الضامن للوعد الإلهيّ الحقّ، الذي لا يُخلف وعده.

مِن الإشكاليّات المهمّة التي قد تُطرح في أذهان البعض، ما مدى عدالة حكومة شاملة أحاديّة وما مدى جدارتها في حكم العالم؟ بعبارة أوضح، ما هي الضمانات بعدم ظهور أيّ نوع مِن الطبقيّة، التفرقة، التهميش،

استغلال الشعوب لأيّ عرق في أيّ بقعة جغرافيّة معيّنة بعد انضمام كلّ الأمم إلى حكومة واحدة في ظلّ عدم وجود أيّ قوّة مركزيّة مقابلة لها ما يؤدّي إلى تفرّدها بالحكم؟ فمن المتعارف عليه أنّ مِن أهمّ الأسباب التي تؤدّي إلى الطغيان والظلم في الحكم، وجود قطب عالميّ واحد يحكم العالم مِن دون منافس أو رقيب أو مَنْ يحاسب. فمن أهمّ الأحداث التي أدّت إلى زيادة الظلم والطغيان والصراعات في العالم، هو انهيار الاتحاد السوفييتي في العام ١٩٩١ وتفرّد الولايات المتحدة كقوّة عظمى وحيدة تحكم العالم، ما أدّى إلى عدم التوازن في العالم وتفاقم الأزمات أكثر. فما هي الضمانات التي يمكن أنْ يقدّمها نموذج الإنسان الكامل للحكم؟ في حين أنّ التجارب البشريّة عجزت عن تقديمها-أي عجزت عن تقديم الضمانات- وكيف سينجح هذا النموذج في حين فشل الآخرون؟ وكيف سيثبت هذا النموذج أنّ الحلّ هو في تفرّده بالحكم لا في التوازن القائم بالتعدديّة القطبيّة للقوى الحاكمة؟

● أوّلًا: وكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا.

يوافق «جون لوك»* مع «توماس هوبز»** على أنّ الحكومة الشرعيّة تنمو وتنشأ مِن الحاجة إلى حماية الإنسان من عنفه الخاصّ به. ولكنَّ «لوك» أشار إلى أنّ الحكّام المطلقين يمكن أنْ يخرقوا حقّ الإنسان في الحفاظ على نفسه، وعلاج هذا ليس الحكم المطلق بالحكومة المحدودة.

إذًا، المشكلة التي أدّت إلى تعزيز فكرة التعدديّة القطبيّة أو إقامة حكومات محدودة للتخفيف من حدّة الطغيان والظلم، هي الإنسان الأنانيّ الظالم لنفسه ولأخيه الإنسان، الإنسان غير الخاضع للرقابة وللقيود والأطر الأخلاقيّة.

إذا لم يحل هذا الكائن الذي هو في مركز القوّة تناقضه الخاصّ وجدله الإنسانيّ مِن الداخل، فسوف يفرز لا محالة صيغة مِن صيغ التناقض الاجتماعيّ، ومهما اختلفت الصيغة في مضمونها القانوني وفي شكلها التشريعي وفي لونها الحضاري، فهي في نهاية المطاف صيغة مِن صيغ التناقض بين القويّ والضعيف، قد يكون هذا القوي فردًا فرعونًا، وقد يكون عصابة، وقد يكون طبقة، وقد يكون شعبًا، وقد يكون أمّة، وقد يكون حكومة، كلّ هذه ألوان مِن التناقض تحتوي روحًا واحدة، وهي روح الصراع، روح الاستغلال مِن القويّ الذي لم يحلّ تناقضه الداخليّ وجدله الإنسانيّ القائم بين التراب والروح الإلهيّة. إذًا، الجدل الداخلي - سواء أكان إنسانًا أم شعبًا أم أمة أم حكومة - سينعكس حتمًا على الخارج، فالحلّ في حماية الإنسان مِن عنفه الخاصّ أو حماية شعب أو أمّة، وهذا لا يتمّ إلّا عن طريق حلّ التناقض الأساس الكامن في المحتوى الداخلي للإنسان، وعندما ينجح في القضاء على هذا التناقض والجدل، سيحمي الإنسانيّة مِن الظلم والطغيان. هكذا نكون قد عالجنا أساس المشكلة.

ولا يكون هذا العلاج إلّا بالإسلام، وهو الدين الذي قدّم منظومة

أخلاقيّة كفيلة بحلّ كلّ أشكال التناقض الداخليّ منشأ التناقض الخارجي، الإسلام الذي يحتوي على حلّ هذه المشكلة التي يواجهها خطّ علاقات الإنسان مع الإنسان، هي تلك الرسالة التي تعمل على مستويين في وقت واحد، تعمل مِن أجل تصفية التناقضات الاجتماعيّة على الساحة، لكنْ في الوقت نفسه - وقبل ذلك - تعمل مِن أجل تصفية ذلك الجدل في المحتوى الداخلي للإنسان مِن أجل تجفيف منبع تلك التناقضات الاجتماعيّة.

● ثانيًا: ثنائيّة ما هو كائن/ ما ينبغي أنْ يكون

ما هي هذه الثنائيّة؟ هل هي مقولة واحدة أم مقولتان منفصلتان؟

تمثّل مقولة ما هو كائن الجانب القانونيّ كما هو عليه مِن دون أيّ اقتداء منطقيّ وأخلاقيّ، أمّا ما ينبغي أنْ يكون، فيمثّل الجانب الأخلاقي؛ إذ تمثّل مقولة ما هو كائن الحقيقة، ومقولة ما ينبغي أنْ يكون القيمة.

نظريًّا، بدأ الفصل بين الحقيقة والقيمة يظهر في عصر التنوير- فصل الذات المستقلّة - في أوروبا. فبالنسبة إلى كانط كما هو الحال بالنسبة إلى النموذج الحديث الناشئ، يُعرّف النضج الفرديّ والحضاريّ بأنّه دافع مستقلّ قارٌّ عميق في الذات، دافع أو إرادة لا توجّه سلوك الإنسان الأخلاقيّ والعقليّ فحسب، بل تضمن استقلاله أيضًا. وكما أنَّ شيلر يعتبر أنَّ للإنسان الحديث إرادة قَبليّة مِن أجل المعرفة وبناء قيمي متمركز حول الرغبة في السيطرة على العالم المادّيّ.

بهذا التوجّه مهّدت نظريّة شيلر لأفكار مدرسة فرانكفورت ونظريّات فوكو في الضبط والقوّة، ووسّعت صفة التحكّم والسيطرة الغربيّة الحديثة باتّجاه الذات التي تدرك بوصفها شيئًا يمكن التحكّم به والتلاعب به بوساطة السياسة والتعليم والتوجيه والمنظّمات. وبذلك كانت السيطرة هي الاتجاه النموذجيّ لا فيما يخصّ المادّة «المتوحّشة» و«البليدة» فحسب، بل أيضًا فيما يخصّ الذات الإنسانيّة؛ إذ يعتقد شيلر إلى جانب بيكون وفيكو ونيتشه وفوكو ومفكّري مدرسة فرانكفورت وآخرين، أنّ نظام المعرفة الغربيّ موجّه بصورة مبرمجة لخدمة القوّة والضبط والسيطرة وتغيير العالم، وعندما تكون المادّة «متوحّشة» و«بليدة»، فإنّه يمكن للمرء أنْ يتعامل معها مِن دون أيّ قيد أخلاقيّ. هذا ليس كلّ شيء، فالنقطة الأكثر أهمّيّة في عزل المادّة بوصفها «متوحّشة» و«بليدة»، هي ظاهرة شديدة الأهمّيّة ناتجة عن ذلك، ومتمثّلة في فصل الحقائق عن القيم، وهو عامل رئيس وجوهريّ مِن عوامل مشروع الحداثة.

إنّ اعتقاد هوبس بفصل الأخلاق عن الموروثات والدين وحصرها بالعقل، مهّد للفصل بين القانون والأخلاق، فوضع أوستن قانون الحاكم في صدارة الجدل حول القانون والأخلاق، متجاوزًا في ذلك هوبس، ففرّق بين قانون الحاكم والقانون الأخلاقي، وبذلك يكون الطابع المعرفي الأساس الذي يميّز الوضعيّة القانونيّة، هو رفض أيّ اقتداء منطقيّ أو أيّ صلةٍ ضروريّة بين القانون كما هو عليه والقانون كما ينبغي أنْ يكون.

تمثّل ثنائيّة ديكارت ما هو كائن/ما ينبغي أنْ يكون، الصراع بين التجلّيات الأداتيّة للعقل وبقايا تراث الأخلاق والفضائل المسيحيّة، وإذا كان هوبس وديكارت هما اللذان كيّفا فكرة الانقسام بين «ما هو كائن» و «ما ينبغي أن يكون» في البداية وبصورة مبسّطة، إذا كان هيوم هو الذي طرحها كإشكاليّة فلسفيّة، في حين ترجمها أوستن إلى الوضعيّة القانونيّة، إلّا أنَّ نيتشه هو الذي أعلى سقفها الوضعيّ بإنكاره الحادّ لصحّة الانقسام كلّيًّا، وهو إنكارٌ لم يتأتَّ من التوفيق بين الاثنين، بل تحقّق عن طريق التضحية بالقيمة «ما ينبغي أنْ يكون»، حيث يبدو أنّ فلسفته جرّدته من كلّ قيمة. إنَّ مفهوم نيتشه عن الحقيقة من حيث ارتباطها بمبدأ إرادة القوّة الذي تبنّاه، من شأنه أنْ يجعل «ما ينبغي أنْ يكون» فارغًا وخادعًا.

يوضح هذا الشرح البسيط العوامل التي أدّت إلى العجز عن حلّ معضلة الظلم والطغيان التي عانت منها البشريّة، بدءًا من الدول الملكيّة التي تحكمها سلالات غير كفؤة وتتفرّد في الحكم ويكون الملك الحاكم هو صاحب السيادة المطلقة، وصولاً إلى الاضطهاد الدينيّ والسلطة الحاكمة التي تحميها السطلة الدينيّة.

في منتصف القرن السابع عشر بدأت التجارب البشريّة بالسعي لحلّ هذه المعضلة بعدما عانت أوروبا من ظلم واضطهاد وطغيان، كان معظمها ذا طابع مقدّس ظاهريًّا، فقدّم العقل البشريّ سعيًا منه للهروب من المشكلة، هذا العقل الذي أصبح هو صاحب السيادة، هذا المثل المحدود ذو الرؤية

المستقبليّة المحدودة بديله، مِن خلال فصل القيمة عن الحقيقة، فنتج عنه فصل القانون عن الأخلاق، فكما أصبح العقل هو صاحب السيادة على الكون لا الله، أصبحت الدولة الحديثة هي صاحبة السيادة المطلقة، أمّا القانون المنفصل عن الأخلاق، فهو مِن إفرازات هذا الطلاق لكلّ ما هو قيميّ.

أصبحت الدولة الحديثة صاحبة السيادة المطلقة تخضع للقانون التي أنتجته المنفصل عن الأخلاق، وبذلك تكون سيادة الدولة ومصلحتها المحرّك الأوّل الذي يحدّد طبيعة سياسات الدولة، فلا وجود للأخلاق تردع هذا الإنسان الحاكم أو هذه الدولة مِن الظلم والطغيان والقانون الموضوع، قانون ضيّقت تحرّكه مصالح الدول وأولويّاتها.

أمّا الحلّ، فيكون باعتبار «ما هو كائن» و «ما ينبغي أنْ يكون» مقولة واحدة؛ أي عدم الفصل بين الحقائق والقيم، وهذا ما يتطلّب تغيرّاً هيكليًّا في الطابع المعرفيّ للبشريّة، والذي يتطلّب بالمقابل إعادة تشغيل الدماغ بطريقة وسطيّة تحقّق التوازن بين الحقائق والقيم، دون هيمنة الدماغ الأيسر المادّيّ الذي لا يعترف سوى بالحقائق ويختزل كلّ ما هو قيمي. وتحقيق الوسطيّة في النشاط الدماغي، يتطلّب إعادة تعريف مِن منظور المعرفة الذاتيّة لا الضدّية للعقل والإنسان والمادّة والكون، والأهمّ مِن ذلك بالمثل المطلق الحقيقيّ، وهذا ما تضمنه المنظومة الأخلاقيّة الصادرة عن ذاك المطلق الحقيقي.

إذًا، الحـلّ بالقانون الحقيقيّ النابع مِن صميم المنظومة الأخلاقيّة، التي لا تُخرج الإنسـان عن دائرة الرقابة الإلهيّة، فالاستخلاف بالصيغة الرباعيّة تحلّ هذه المعضلة؛ إذ إنَّ الله صاحب السيادة المطلقة استخلف الإنسان على أخيه الإنسان وعلى الأرض وكلّ ما عليها، وأمّنه عليهم ضمن القوانين التـي لا تخرج عن الأطر الأخلاقيّة باحترام العلاقة المعنويّة بين الإنسـان وأخيه، وبين الإنسـان والمادّة، هذا الإنسـان المُسـتَخلَف تحـت الرقابة الدائمة مِن الله المُسـتخلِف، هذه الرقابة وهذه القوانين والأطر الأخلاقيّة هي التي تردع الإنسان والدولة مِن الظلم والطغيان.

أمّا الإنسـان الذي يمُثِّل السـيادة الإلهيّة عـلى الأرض ويحقّق مصداق الاسـتخلاف بـكلّ شروطه وأطره، هو ذاك الإنسـان الكامـل الذي يمتثل للمطلق الحقيقيّ، للسنن التي جعلها في الكون والتاريخ والإنسان؛ لذلك فإنّ الحـلّ الوحيد لرفع الظلـم والطغيان، لا يكون إلّا بحكومة الإنسـان الكامل الأحاديّة.

● ثالثًا: المثل الأعلى المطلق

بما أنّ الحريّة تمثّل حجر الزاوية في مشروع التنوير، والتي يعبرَّ عنها في فكرة الاسـتقلال الكنتيّة، فإنَّها لم تعد تشير إلى قدرة الله المطلقة ومشيئته غـير المتناهية، وغدت بـدلاً مِن ذلك تعبـيراً عن قدرة الإنسـان الطبيعيّة على اسـتخدام العقل. ويعتقد هوبز بوجوب تأسيس الأخلاق على قوانين

موضوعيّة يكتشفها العقل، لا على التراث أو أيّ نصوص دينيّة.

إنّ العقل البشريّ المحدود الذي أنتج المسار ذا الرؤية المستقبليّة المحدودة، بات اليوم يواجه الكثير مِن المشكلات، فإنسان هذا العصر ومجتمعه بات يعيش الأزمات النفسيّة والاجتماعيّة والروحيّة بشكل يوميّ، وكلّ ما أنتجه هذا المسار هو إنسان منتج وخاضع، فقد حُوّل الإنسان إلى آلة تستثمر فيها الدولة لينتج لها غايتها الأساس «المنافع»، وبات إنسان هذا العصر حتّى الإنسان المسلم مع الأسف تتحكّم فيه هذه الذاتيّة المادّيّة التي زُرعت في ذاتيّته البشريّة، وبات مقتنعًا بأنَّ جُلّ همّه المنفعة والمادّة -مأكله ومشربه وملبسه-، هذه المادّة التي بها يحقّق كماله. لقد تحوّل المسار التكامليّ الإنسانيّ إلى مسار مادّيّ منفصل عن القيمة، وهذا نتاج الإفراز الذهنيّ المحدود الذي أنتجه العقل الذي فصل القيم عن الحقائق.

فالظلم والطغيان قبل كلّ شيء يمارسهما الإنسان مع ذاته، بعد أنْ فصل عنها الروح الإلهيّة (القيمة) وأبقى على التراب المادّة (الحقيقة)، هذا ما أنتجه المثل الأعلى المحدود المتمثّل بالهوى - العقل النفعي الديكارتيّ - بعد أنْ فصل بين القيمة والحقيقة.

أصبحنا نظلم أنفسنا بتخلّينا عن جوهر إنسانيّتنا المتمثّلة بالروح الإلهيّة المقدّسة. ينتفي هذا الظلم والطغيان الداخلي الذي يمارسه الإنسان الحديث مِن خلال إيمانه الحقيقيّ لا الظاهري فقط بالمثل الأعلى

المطلق الله سبحانه وتعالى، الإيمان بالمثل الذي خلق هذه الثنائيّة، التراب والروح، الحقيقة والقيمة، هذا المثل الأعلى المطلق الذي قدّم في كتابه المقدّس القرآن القانون على أنّه مشتقّ عضويًّا مِن الأخلاق النموذج الأصليّ، فما هو قانوني في القرآن والشريعة القائمة عليه، هو أخلاقيّ بالمثل، والعكس صحيح.

هذه النظريّة الأخلاقيّة الكونيّة التي يقدّمها القرآن، يطبّقها الإنسان الكامل في نموذجه الذي يمتثل للسنن التاريخيّة القرآنيّة، وبذلك يكون خلاص الإنسانيّة بالامتثال لنموذج الإنسان الكامل التجربة الحسّية للنظريّة الكونيّة القرآنيّة.

يتعرّض روح الله الخميني لهذا الموضوع قائلاً:

« فإذا أردنا تخليد أحكام الشّرع عمليًّا، ومنع الظلم والاعتداء على حقوق الضعفاء مِن الخلق ومنع الفساد في الأرض، ومِن أجل تطبيق أحكام الشّرع بشكل عادل، ومحاربة البدع والضلالات... مِن أجل ذلك كلّه لا بدّ مِن تشكيل حكومة»، ويقصد هنا الحكومة الإسلاميّة، حيث يرى الإمام الخميني أنّ الإسلام بحكومته هو الحلّ لرفع الظلم والطغيان.

لذلك يكمن الحلّ النهائيّ الذي يقضي على كلّ أنواع الظلم والطغيان في حكم الإنسان الكامل الممتثل للدين بكلّ شروطه وسننه، وبذلك يكون الحلّ الوحيد هو بإرساء حاكميّة الإسلام في العالم أجمع.

في الختام، يتّضح لنا أنَّ الحكومة العالميّة للإمام المهدي، عجّل الله

فرجه الشريف، هي الحلّ الوحيد لكلّ ما تواجهه البشريّة من تحدّيات ومشكلات، وإنَّ صلاح البشريّة وتحقيق العدالة لا يتحقّق إلّا من خلال هذا الطريق بقيادة الإمام سلام الله عليه، ويتّضح أيضًا أنَّ الحكومة العالميّة لا يمكن أنْ تتحقّق إلّا بوجود الإنسان الكامل الذي وحده مَنْ يستطيع صناعة الإنسان والمجتمع العالمي وبناء هويّة عالميّة، وبعد توحيد الإنسان تحت مظلّة واحدة عالميّة وشاملة، توحّد الأرض تحت حكومة عالميّة واحدة، بعد أنْ حقّقت كلّ الأسباب الموضوعيّة للنجاح، بدءًا من الإنسان والمجتمع والهويّة، وصولاً إلى الأسباب والجيّوبوليتيكيّة ببعديها الأخلاقي والمادّي (السياسي، العسكري، الاقتصادي)، فقد ثبت لنا أنْ وحده الإنسان الكامل مَنْ يستطيع أنْ يصنع الإنسان العالمي، بناء هويّة عالميّة غير مقيّدة كنتيجة لمثله الأعلى المطلق، وهذا ما يعني أنَّه من الاستحالة بعد أنْ ينجح في عدم تقسيم الإنسان هويّاتيًّا أنْ يقسم الأرض، وهذا ما سيُنتج أرضًا غير مقسّمة، يعني جغرافيا عالميّة.

والقضيّة المهمّة أيضًا أنَّ توحيد العالم الإسلامي تحت حكومة واحدة، لن يتحقّق إلّا بعودة الإنسان الكامل، وقد ثبت لنا من الزاوية الجيّوبوليتيكيّة التقليديّة أنَّ مَنْ يسيطر على العالم الإسلامي ويحكمه، يمتلك الأسباب الموضوعيّة للسيطرة والتحكّم بالعالم أجمع.

إذًا، الكلام عن الحكومة العالميّة للإمام المهدي، عجّل الله فرجه، ليس عاطفيًّا رومانسيًّا، بل هو كلام العقل والمنطق؛ لتوفّر كلّ الأسباب

الموضوعيّة التي تضمن تحقّق هذا الأمر بما يلزم أصحاب العقل والمنطق مهما اختلفت انتماءاتهم الفكريّة والأيديولوجيّة، وهذا ما نعتقده في قضيّة نهاية التاريخ.

هذا ما تؤمن به الشيعة الإماميّة الاثني عشريّة، الحكومة العالميّة لن تقوم إلّا بنداء «يا أهل العالم»، والسلام.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- مفاتيح الجنان.
- الصحيفة السجّادية.
- «باب المندب بالوقائع والأرقام». الشرق الأوسط. مؤرشف من الأصل في ٢٧ يوليو ٢٠١٨. اطلع عليه بتاريخ ٠٢ فبراير ٢٠٢١.
- أسماء ملكاوي: حالة العالم الإسلاميّ: أرقام ومؤشرات، موقع الجزيرة.نت، ٣-١٠-٢٠٠٤.
- ألكسندر دوغين: أسس الجيوبولتيكا مستقبل روسيا الجيوبوليتيكي، تعريب وتقديم د. عماد حاتم، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ٢٠٠٤.
- بندكت أندرسن: الجماعات المتخيّلة تأملات في أصل القومية وانتشارها، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٧م.
- جدة عبد الرزاق الزهراني: مجلّة الرياض، نقلاً عن إحسان أوغلي الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلاميّ. ٢٠١٠/١/١٣. العدد١٥٩٠٨ .
- الجمعيّة العامة للأمم المتّحدة: الدورة الثانية والستون الجلسة العامّة ١٩، المحاضر الرسمية، الأمم المتحدة، نيويورك، ٥ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧م.
- روح الله الخميني: الحكومة الإسلاميّة، دار الولاء، بيروت، ٢٠١١م.

■ زبيغنيو بريجنسكي: الاختيار السيطرة على العالم أم قيادة العالم، ترجمة عمر الأيوبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٤م.

■ زبيغنيو بريجنسكي: رؤية استراتيجية أمريكا وأزمة السلطة العالميّة، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠١٢م.

■ زهراء عباس هادي: الجغرافيا السياسية للطاقة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٢١م.

■ سامي عبد العزيز عثمان، أمن البحر الأحمر، ٢٠١٦.

■ عبد الرزاق عباس حسين: الجغرافيا السياسية: التركيز على المفاهيم الجيوبولتيكية، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٧٦م.

■ عبد العزيز محمد الشناوي: السخرة في حفر قناة السويس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠م.

■ عدنان السيد حسين: الجغرافيا السياسية والاقتصادية والسكانية للعالم المعاصر، المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٦م.

■ محمد أزهر سعيد السماك: الجغرافيا السياسية الحديثة، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٩٣م.

■ محمد الريشهريّ: الخير والبركة في الكتاب والسنة، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٢م.

■ مريم التايدي - الرباط، يختزن المغرب ٧٠٪ من موجودات هفي

العالم، موقع الجزيرة.نت، مؤرشف في ٢٠٢٠/١٢/٧.

■ هبة جمال الدين محمد العزب: الدبلوماسية الروحية والمشترك الإبراهيمي المخطط الاستعماري للقرن الجديد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٢١م.

■ هنري كيسنجر: ، النظام العالميّ تأملات حول طلائع الأمم ومسار التاريخ، ترجمة: فاضل جتكر، دار الكتاب العربي، ٢٠١٥م.

■ وائل حلاق: الدولة الحديثة الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي، ترجمة عمرو عثمان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت ٢٠١٥م.

في اللغة الانجليزية:

■ Alejandra Roman & Administration. «Strait of Hormuz». The Encyclopedia of Earth. Published in 2015.

■ Allen Keisetter and Bishop John Chane, "Diplomacy and Religion: Seeking Common Interests and Engagement in a Dynamically Changing and Turbulent World," The Brookings Project on U.S. Relations with the Islamic World, U.S.-Islamic World Forum Papers 2013 and Saban Center for Middle East Policy at Brookings, (November 2013).

■ Aira Kemilainen, Nationalism: Problems Concerning the World, the Concept and Classification.

■ Charles Kruszewski. The Pivot of History. Foreign Affairs. Published in 1954.

■ Christina Armenta, Kennon M. Sheldon. Is Lasting Change Possible? Lessons from the Hedonic Adaptation Prevention Model in Stability of Happiness, Science Direct.com, 2014.

■ Elizabeth C. Losos and T. Robert Fetter, FUTURE DEVELOPMENT. Building Bridges? PGII versus BRI, published in Thursday, September 29, 2022. https://www.brookings.edu/

■ Ernest Gellner. Thought and change. Published in 1964.

■ Ernest Renan. Qu'est-ce qu'une nation? Publié en 1882. (بالفرنسية)

■ Evans, Graham The Penguin Dictionary of international relations. New ham, Jeffrey. London: Penguin books. Published in 1998.

■ Eker-Develi, E. Distribution of phytoplankton in the southern Black Sea. Spring and autumn 1998. Journal of Marine Systems. 39 (3–4): 203–211.

■ Francis Fukuyama, " Transitions to the Rule of Law," Journal of Democracy, vol. 21, no1. January 2010.

■ Freeman, Donald B. The Straits of Malacca: Gateway or Gauntlet? (2003). McGill-Queen›s University Press. ISBN 07-2515-7735-. A book review citing this information can be found at University of Toronto Quarterly, Vol. 74, No. 1, Winter 20045/.

■ Gary Lawson. Rise and Rise of the Administrative State. Harvard Law Review Pub. Association, Vol. 107, No. 1231. Published in 1994.

■ Haradhan Kumar Mohajan. The First Industrial Revolution: Creation of a New Global Human Era. Research Gate. October 2019.

■ Haradhan Kumar Mohajan. The Second Industrial Revolution has Brought Modern Social and Economic Developments .Research Gate. January 2020.

■ International - U.S. Energy Information Administration (EIA)» , www.eia.gov. Archived (PDF) from the original on 22 November 2014. Retrieved 28 April 2018.

■ Islam Is the Fastest Growing Religion in the World. VOA - Voice of America English Newshttps://www.voanews.com. May 7، 2016.

18. Ivy Panda, Free Study Hub, "Religion and Politics Religious Capacities for Conflict Resolution and Peace building," MDPI Journals, https://bit.ly/33jjVBs. accessed on 15 January 2019

■ JOSEPH R. BIDEN JR. Memorandum on the Partnership for Global Infrastructure and Investment. THE WHITE HOUSE. https://www.whitehouse.gov.

■ Khanna, Parag. Connectography Mapping the Future of Global Civilization. Published in 2016.

■ Lily Kuo and Niko Kommenda, What is China›s Belt and Road Initiative? https://www.theguardian.com/

■ Mackinder, H.J. Democratic Ideals and Reality, A study in the politics of Reconstruction. National Defense University Press. Published in 1919.

■ Mackinder, H.J. The Geographical Pivot of History. The Geographical Journal, Vol.23, No.4. Published in April 1904.

■ Marcus Hernig: Die Renaissance der Seidenstraße (2018)

pp 112.(بالألمانية).

■ NICHOLAS J. SPYKMAN. America's Strategy in World Politics. Published in 1942.

■ NICHOLAS J. SPYKMAN. Geography and Foreign Policy. Published in 1938.

■ NICHOLAS J. SPYKMAN. The Geography of Peace. Published in 1942.

■ Other threats in the Mediterranean Greenpeace International. Greenpeace.org.2010.

■ Roland Czada, Thomas Held and Merkus Weingardt, "Religions and World Peace Religious Capacities for Conflict Resolution and Peacebuilding," Baden-Baden – Nomos 2012, https://bit.ly/36cl-jaM. accessed on January 2019.

■ Strait of Malacca - World Oil Transit Chokepoints Archived 201422-11- at the Wayback Machin, Energy Information Administration, U.S. Department of Energy.

■ Devetak، Richard، George، Jim، Sarah. An introduction to International relations 1946-Percy. V.1977-(Third ed.). P: 816.

■ The Maritime Silk Road in South-East Asia. Aljazeera.net

Archived 201105-06- at the Wayback Machine.

■ VALERIO FABBRI, the new infrastructure programme initiated by the G7 – the PGII – going to successfully counter or end the dominance of China's Belt and Road Initiative (BRI)?. Published in 302022/08/Is. https://www.geopolitica.info/

■ Vidal de la Blanche. Panneau Géographique de la France. Publié en 1908.(بالفرنسية)

■ Why Muslims are the world›s fastest-growing religious group. Pew Research Centre. April 2017.

World Oil Transit Chokepoints. U.S. Energy information Administration. https://www.eia.gov/international/analysis/special-topics/World_Oil_Transit_Chokepoints

الفهرس

المقدمة ٥

الفصل الأوّل ٧
الجيّوبوليتيك

أوّلاً: تعريف الجيّوبوليتيك ٩
ثانياً: نظريّات الجيّوبوليتيك ١٠

الفصل الثاني ١٥
تمهيد أوّلي لصياغة نظريّة المحور المركزيّ

أوّلاً: الحركة الجغرافيّة لأهمّ الأنبياء والرسلات العالميَّة ١٧
ثانياً: الأمّة الإسلاميَّة ١٨

الفصل الثالث ٤٩
المشروع العالميّ وحتميّة الجغرافيا

أوّلاً: التجربة الأولى الاستعمار الفرنسيِّ والبريطانيِّ ٥١

.....

ثانياً: التجربة الثانية هيمنة الولايات المتّحدة الأمريكيَّة ٥٣
ثالثاً: الجغرافيا الاتِّصاليّة الوظيفيّة ٥٩

الفصل الرابع ٧٥
جيّوبوليتيك الأخلاق: العالميّة بحاجة لإنسان عالمي ومجتمع عالمي

أولًا: محورية الإنسان في صراع الحق والباطل ٧٧
ثانيًا: التضليل الحديث ٧٩
ثالثًا: أهمية الجهاد الأكبر ٨٣
رابعًا: الحرب المعرفية أحدث أدوات الباطل ٨٥

الفصل الخامس ٩٧
لماذا الحكومة العالميّة؟

أوّلًا: وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا ٩٩
ثانيًا: ثنائيّة ما هو كائن/ ما ينبغي أنْ يكون ١١١
ثالثًا: المثل الأعلى المطلق ١١٥

المصادر والمراجع ١٢١

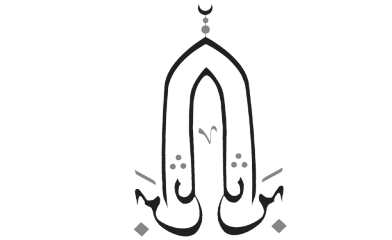

هو مركز بحثي مستقل غير ربحي، مركزه في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والاكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، والاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكّل في مجموعها ذلك الحراك الاجتماعي والانساني الكبير، الحاصل في العالم، وخصوصا في بلادنا العربية والإسلامية؛ ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والإجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجدة، سعيًا للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقدّمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

يحاولُ هـذا الكتابُ معالجةَ قضيّةِ الحكومةِ العالميّـةِ ونهايةِ التاريخِ من زاويةٍ جيوبوليتيكيةٍ، حيث يبحث في أحد أهمّ الأسـبابِ الموضوعيّةِ اللازمةِ لتحقّقِ القضيّةِ في العالمِ الواقعيِّ، وبما أنّنا نتكلمُ على دولةٍ سـتنهي التاريخَ البشريَّ؛ إذًا فـلا بدَّ من توفّرِ شروطٍ مميّزةٍ وفريدةٍ في الأسـسِ الأوليّـةِ في هيكلةِ الدولةِ تميّزُهـا عن سـابقاتِها. فما هي أهـمُّ المميّـزاتِ والمقوّمـاتِ الجيوبوليتيكيّةِ التـي تتميّـزُ فيها تلـكَ الدولةُ المنشـودةُ؟ ولماذا سـتنجحُ في تحقيـقِ النهايةِ الفعليّـةِ للتاريخِ البشريِّ، في حين أنَّ أيًّا من التجاربِ السـابقةِ عجزتْ عن هذا الأمـرِ؟ ومـا هو أهميّةُ ودورُ الإنسـانِ الكاملِ في ضمانِ الوصـولِ إلى الهدفِ المرجـوِّ؟ وما أهميةُ النوعِ الإنسـانيِّ من الناحيـةِ الجيوبوليتيكيّـةِ؟ وقبلَ هذا وذاك وبعـدَه، هل أصـلُ الحكومةِ العالميّـةِ حاجةٌ ضروريّةٌ للنوعِ الإنسـانيِّ؟ ستجدُ في هذا الكتابِ الإجابةَ عن هذه الإشكالاتِ المطروحةِ وغيرِها.

- الدراسة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز -

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد